الإمام
محمد متولي الشعراوي



البعث والميزان والجزاء

دار الندوة

بسم الله الرحمن الرحيم

© **دار الندوة** للنشر ص . ب (٦٩) اسكندرية ج. مصر العربية

DAR EL - NADWA, P.O. BOX NO. (69), ALEX., EGYPT.

رقم الايداع   /١٩٩١م

الإمام
محمد متولي الشعراوي

البعث والميزان والجزاء ..

دار الندوة

تقديم

حديث الإمام دائماً تعشق له الأذن السماع ، والقلب يسطع به ضيائًا فتلك .. مصابيح للهداية والتنوير بذات الدين بكل ماينطق به لنا عقل الداعية الجليل **الإمام محمد متولى الشعراوى** .. إنه بحق الرياض العطرة التى تفوح منها تلك المنح الإلهية التى وهبها الله لعبد من عباده الصالحين لتمثل لنا دليلاً لمنهج الهداية والرشاد لنا نحن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

الداعية الإسلامى الجليل **الإمام محمد متولى الشعراوى** عندما يحدثنا نحن المسلمين فى أى موضوع نرى فى حديثه لنا أداة للتبصر ليدرك القلب الحقيقة ، ويمسك به العقل نور اليقين سيراً معه إلى طريق الصلاح والفلاح .. فتلك هى غاية الداعية الجليل أمد الله لنا فى عمره الوضاء .

القارئ لحديث **الإمام محمد متولى الشعراوى** يجد به جلاء للغموض ، وتوضيح لما خفى فى العديد من الحقائق فهذا مايظهر جلياً من خلال صفحات هذا الكتاب عن .. القيامة والبعث والميزان والجزاء ، ومتطلبات الإنسان فى تلك الحياة إستعداداً لهذا الموقف العظيم .

الإمام يحرص كل الحرص أن يوضح لنا هذا الأمر وذلك تحذيراً للعابثين ، والمتشككين ليدركوا حقيقة وهى أن .. الموت والإنتقال أمر لا مفر منه فَلنُعِدَّ الزاد لهذا اللقاء ، وأن نتدبر قبل أن ينقضى العمر ونحن فى غفلة فنجد يوم العرض يكسونا الخزى أمام رب العرش العظيم بينما الصالحين والمتقين تظلهم رحمة الرحمن الرحيم فى جنات عدن مع الصديقين .

و« **دار الندوة** » تتشرف بالإعداد والنشر لبعضاً من أحاديث تلك الموسوعة الإيمانية لما يدعوا به الإمام الجليل ففى ذلك يمثل سعى منا لنيل شرف تلك الإصدارات فهى قطرة من محيط العلم الربانى الذى يزخر بلآلئ الهداية ، وسعينا الجاد أيضاً فى نشر تلك الموضوعات بتوفيق من الله يعد آداة تفيد الإنسان المسلم فى يومه وغده فتلك أداة للتبصرة إلى حقيقة الإيمان لنسير معه نحن المسلمين دائماً على الصراط المستقيم .

وشرفنا اليوم بتقديم هذا الموضوع يمثل إدراكاً منا فى أن نقدمه فى الإطار اللائق به كما تعودنا مع كل قارئ يتصفح أحد مطبوعاتنا فكيف لا يكون الاخراج الجيد لهذا الموضوع أيضاً وذلك سعياً منا لتحقيق الهدف ، وهذا ماسوف نؤكده فى الصفحات التالية بفضل من الله الذى يستحق منا كل الحمد والشكر فبه دائماً نستعين .

الناشر

فى البدء ٥٥٥٥

القيامة والبعث

أولاً ٥٥٥٥

١

القيامة والغيب

الحق سبحانه وتعالى حين يخاطبنا عن الأمور الغيبية فإننا لا نجد فيها مايجعلنا أن نؤخذ هذه الأمور الغيبية على مقتضى مفهومنا للأمور فى اللغة التى أخذت وضعاً ومفهوماً آخر .. فكما سمى الحق سبحانه وتعالى القيامة .. القارعة ، الحاقة . الصاخة ، الغاشية فكل اسم منها يدل على معنى من المعانى التى تشاهد فى يوم القيامة .

الحق سبحانه وتعالى حين سمى القيامة بالقارعة فقال .. ماالقارعة ؟.. هل أدل ذلك على معنى القارعة ؟!.. فالمراد ليس هو المعنى اللغوى ، وإنما هو معنى مبهم .. هذا المعنى المبهم يسأل عنه ومع ذلك لا يوجد أحد يعطيك معناها .. لماذا ؟ .. لأنها أمر غيبى ، ومادامت هى أمر غيبى فليست فى متناول البشر أن يضعوا لها لفظاً لأن اللغة التى يضعها الناس لابد أن يعرفوا منها المعنى أولاً ثم يضعوا لها لفظاً ثانياً فلا يوضع لفظ أولاً لمعنى لا يعرف .

إذاً .. فمعنى ذلك أن القيامة والأمور الغيبية لا يمكن أن يضع لها الخلق لفظاً من عندهم .. لماذا ؟.. لأن وضع اللفظ يدل على معنى يأتى بعد إتضاح المعنى الحقيقى فى الذهن ، ومادامت الأمور غيبية فلا إتضاح لهذه المعانى فى الذهن . إذا.. فليس عندنا الفاظ تؤدى المدلولات الغيبية ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يخاطبنا فبأى شئ يخاطبنا ؟.

الأمور الغيبية مادامت لم تطرأ على بالنا لنضع لها فى لغتنا الفاظاً تعبر عنها ، فإذا أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعبر عن هذه المعانى الغيبية فإنه يجئ بالألفاظ التى تؤدى معناها على الحقيقة ولا توجد فى لغتنا فلا نفهم منها شيئاً .

إذاً كان لابد أن يخاطبنا الحق سبحانه وتعالى باللغة التى نفهمها فإنه ينقل الألفاظ من معانيها اللغوية إلى معان تناسب غيبتها الغير معروفة لنا فى أذهاننا لنعرف معانيها .

الحديث إلى ملكات غيـــر العقـــل !!

الأمر التهويلى يعطى صورة قوية للقارعة فمن هذه الصورة القوية يريد الحق سبحانه وتعالى أن يربى المهابة منها .. والفزع منها .. ويربى الخشية .. ويربى الاستعداد فى النفوس ، وإنما لحظة مايقرأه الحق سبحانه له تأثير فى نفسك .. فقبل أن تعلم هذا التحليل الذى ذكرناه للإبهام وبعد ذلك للتهويل ثم للتعجيز .. يمكن أنت أن تأخذ بالأسلوب

قبل ماتعرف هذا .. فلماذا ؟.. لأن الحق سبحانه وتعالى يخاطب فينا أشياء وملكات غير العقل ، فهذا ماتراه عندما يسمع فرد القرآن الكريم فتعتريه .. خشية ورهبة ما تجعله يبكى وينفعل .

إذا ماجئت إلى هذا الشخص وقلت له .. لماذا إنفعلت ؟.. ولماذا بكيت ؟.. فإنه لم يستطع أن يعلل لك لماذا إنفعل ولماذا بكى ؟.. لإننا عندما نخاطب بعض فإننا نخاطب عقولنا ، وإنما الحق سبحانه وتعالى يخاطب فينا كل تكويننا ، وكل ذراتنا .. كما يخاطب الأرض ، ويخاطب الحيوان ، ويخاطب النبات .

الحق سبحانه وتعالى حينما يخاطبك إنما يخاطب كل ملكاتك وهو . القادر على أن يجعل ملكات ذراتك نفسها أن تفهم خطابة .. كما أن الأرض والسماء فهمتا عنه خطابة .. «قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» .

إذاً الحق سبحانه وتعالى حين يخاطب لا يخاطب بمدلولات الألفاظ .. إنما يخاطب بشئ أسمى من هذا فقد يعترينا أن ننفعل للقرآن قبل أن نعرف المراد الذى تكلمنا عنه .

وكيف يكون هذا الإبهام والجهل بالمعنى من الإنسان ، والقرآن عربى نزل بلغة العرب ، والعرب يعلمون دلالة ألفاظ لغتهم على معانيها .. ومادامت أسماء القيامة من الفاظ اللغة فقد كان من المفروض أن تفهم معناها فكيف يأتى الإبهام على لفظ تواضع الناس على أنه موجود فى لغتهم ويتفاهمون به ؟!.

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يدلنا على معنى .. وهذا المعنى هو أن هناك فرقاً بين معنى الألفاظ فى اللغة ، وبين المعنى الإصطلاحى المراد من ذلك اللفظ .. لماذا ؟.

اللغة تتكون ألفاظ يعبر بها الناس عن أغراضهم فلها معانيها القوية بحيث اذا إطلقت فُهِمَ المعنى ، ولكن قد يأخذ الناس لفظاً من الألفاظ له دلالته اللغوية ليعبروا به عن دلالة إصطلاحية فبعد أن كان يعبر عن معناها اللغوى أصبح يعبر عن معنى إصطلاحى جديد فمثلاً .. عندنا فى علم النحو وقبل أن يوجد ذلك العلم كان معنى النحو هو .. القصد .. فنقول .. سرت نحو كذا .. أى قصدت كذا ، لكن العلماء عندما وضعوا القواعد أخذوا هذه الكلمة من اللغة .. إستعاروها ووضعوها لمعنى جديد بحيث إذا إطلقت هذه الكلمة عند أهل النحو إنصرفت إلى قواعد اللغة .

إذاً .. فكأن المعنى الإصطلاحى يأخذ المعنى اللغوى ويضعة لمعنى جديد فمثلاً كلمة الحج لها معنى فى اللغة وهو .. القصد إلى شئ عظيم ، ولكن الشرع الاسلامى أخذ كلمة الحج من مدلولاللغة وخصها بمعنى خاص بحيث إذا أطلقت على الشرع لا تدل على المعنى اللغوى الأول إنما تدل على معنى إصطلاحى جديد هو .. القصد إلى بيت الله الحرام فى شهر معلوم .. إذاً فقد تحدد الشئ العظيم وأصبح هو الكعبة وحدها .

الدلالــــة
والحقيقة ..

إن أسماء القيامة الدالة على معانيها الحقيقية مثل .. الحاقة ، القارعة هى الأخرى نقلت من معناها اللغوى إلى معنى غيبى لأن القيامة غيب ، والغيب لا يمكن أن يضع لها الخلق الفاظاً من عندهم لأن وضع اللفظ للمعنى إنما يأتى بعد إتضاح المعنى فى الذهن .

القيامة مادامت غيباً فلا يمكن أن تتضح فى الذهن أذ أنه ليس عندنا ألفاظاً تؤدى هذه المعانى الغيبية . لكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يخاطبنا .. فبأى شئ يخاطبنا مادامت المسائل الغيبية لم تطرأ على الذهن لنضع لها فى لغتنا الفاظاً تعبر عنها ؟.

وإذا أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعبر عن هذه المعانى الغيبية ، وعبر عنها بألفاظ تؤدى معناها الحقيقى فلا يمكن أن نفهم شيئاً لأن الألفاظ التى تؤدى معنى الغيب على الحقيقة غير موجود فى لغتنا لأن هذه المعانى غير موجودة فى أذهاننا .

إذاً الحق سبحانه وتعالى يخاطبنا باللغة التى نعرفها لكى يُنْقِلُ هذه الألفاظ من معانيها اللغوية إلى معانى تناسب معنى الغيب الغير موجود فى أذهاننا ليقربها إلى أفهامنا لنعرف حقيقتها .. هذا شأن كل معنى غيبى فى القرآن أو السنة .

ولهذا فقد نقلت ألفاظ القيامة مثل .. الحاقة ، الغاشية ، القارعة من معانيها العقدية إلى معنى آخر هو .. يوم الهول والفزع

الاكبر الذى لا يسيطيع العقل تصوره ، ولا إدراكه ، ولا الاحاطة بما يحدث فيه .

الموعـــد والمكـــان ..

الحيـاة تفاعل بين الانسـان والزمان والمكان ، وأن الزمـن يحجب عنا الماضى . ويحجب الانسان عـن المستقبـل ، والمكان هو الذى يحجب الإنسان عن الحاضر ، ويعنى ذلك أنه الآن فى مكـان ما تحدث أحداث فالـذى لانعرفها وهى تحـدث هـو .. حاجز المكـان ، والذى جعلنى أخمن ماحدث فى هذا المكان الذى نجلس فيه من سنة أو سنتين أو عشر سنوات هو .. حاجز الزمان ، والذى يجعلنى أجهل ما يحدث فى هذا المكان بذاته بعد سنة أو سنتين أو أكثر هو حاجز .. الزمان أيضـاً .

حاجز الزمان هو الذى يحجز عنى الماضى والمستقبل وحاجز المكان يحجز عنى الحاضر ، وهذه الحواجز بالنسبة لعلم الإنسان المحدود هى التى تحول بينه وبين مايريد أن يعلمه . لكن بالنسبة للحق سبحانه وتعالى فالزمان والمكان من خلقه وعلمه وصنعته .. قديمة أزلية فعلمه موجود فى الرمان ، وقبل أن يوجد الزمان والمكان فعلمه ذاتى ، ومادام علمه ذاتياً والزمان والمكان من خلقه فلا يمكن أبدا أن يتأثر الذات السابق للزمان والمكان باللاحق وهو .. الزمان والمكان .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى ..

«وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ»

(الحاقة : ٣)

«وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِينِ»

(الانفطار : ١٧)

.. فمعنى هذا ان حاجز الزمان يحول بينك أيها الإنسان وبين إدراك معناها لأن القيامة وأهوالها أمور مستقبلية فليس عند الانسان أشياء تجعله يفهم مايحدث فى المستقبل .. لكن الحق سبحانه وتعالى الذى أستوى عنده الزمان فلاحاضر ولاماضى ولامستقبل إذ أنه هو الذى يستطيع أن يخبرك خبر القيامة فقط .

إذاً فقول الله جل جلاله .. «وَمَا أَدْرَاكَ» .. تعنى أن لاأحد يدريك .. أى يعلمك من أمر هذه المعانى شيئاً ، ولا يدريك إلا من لا يحجبه الزمان والمكان ، ومن هنا فقد وصف الله مايحدث يوم القيامة بما يقربه إلى أذهاننا لا بالحقيقة لأن الحقيقة لانستطيع أن ندركها .

* * *

٢

أهوال القيامة

يوم القيامة هو .. يوم الدين ، والله سبحانه وتعالى هو .. مالك يوم الدين ، ولهذا قال الله عن يوم القيامة ..

«يَوْمَ يَقُومُ النَّاس لِرَبِّ الْعَالَمِينَ»

(المطففين : ٦)

.. أى أن المُلْكُ له سبحانه ، والتصرف له وحده لأن الحق سبحانه وتعالى فى هذه الدنيا غيب وراءه أسبابه الظاهرة . لكن الآخرة لا أسباب فيها إذاً .. فهو الحق وحده المباشر للعمل دون أسباب ، ونحن نتناول الأشياء بأسبابها ، ولكن الأسباب ستظل يوم يقوم الناس .. لرب العالمين .

«يَوْمَ تُبدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضُ

وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا للَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»

(إبراهيم : ٤٨)

أى بعد أن كانت هناك مشاهد سببية يختفى وراءها القيوم سبحانه وتعالى أصبح يوم القيامة لايوجد إلا هو وحده دون الاسباب .

لاشىء يحجب القلب عن عظمة القيام لرب العالمين إلا .. غفلة الإنسان عن شريعة الله التى ترين على قلبه فتحجبه عن صفاء الإدراك ، والقلب بفطرته الصافية النقية السليمة يمكن ان يهتدى الى منهج الحق وحده .. لكن الذى يحجب القلب عن فطرته وبشريته هو .. أثر البيئة وأثر الغفلة .

الإنسان يأتى أمام شهوة من الشهوات فيغفل عن بعض المنهج ، وبعد ذلك يأتى مرة أخرى فيتبلد القلب وينحجب عن إدراك المراد من القلب من .. الوقوف والقيام لرب العالمين ، وعلي سبيل المثال هو .. التهديد ، ويقول الله سبحانه وتعالى منبهاً هؤلاء الغافلين .. «إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً» ، والذين يقولون .. «مَتَى هَذَا الْوَعْدُ» .. أى يريدون أن ينفعل الله سبحانه وتعالى لإستعجالهم لهذا اليوم عن وقته الذى حدده الله ، والله سبحانه وتعالى لاينفعل لذلك لأن الإنفعال تغير ، والحق سبحانه لايتغير ففى الوقت المحدد سيكون .. يوم الفصل بين الحق والباطل .

النفـــخ فـــى الصـــور
وقيام من فى القبور ..

إن أول هول يحدث هو .. النفخ فى الصور ، وقيام الناس من قبورهم كما قال الله سبحانه وتعالى ..

«يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً»

(النبأ : ١٨)

.. ويصحب هذا المشهد إنقلاب هائل فى السماء والارض على السواء إذ قال الله سبحانه وتعالى ..

«يَــوْمَ تُبــدَّلُ الأَرْضُ غَيْــرَ الأَرْض
وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»

(إبراهيم : ٤٨)

الأرض والسماء الموجودتين هما .. سماء وأرض معاش ، وهناك أرض وسماء معاد ، والفرق بين أرض وسماء معاش ، وأرض وسماء معاد هو أن سماء أرض المعاش فيها إدخار لأسباب ، وعالم العلل ، وعالم المعلولات .. ولكن فى الآخرة لا أسباب . ولا علل ولا معلولات إنما بمجرد أن يخطر الشئ ببالـك فإنـك تعيش بقـدر السبب فى .. كــن .

ويحدث

للسماء والارض ..

دنيا العناصر هى .. المطر الذى ينهمر من السماء ، والحرارة التى تبخر الماء إلى آخر مافى الدنيا من أسباب لالزوم لها فى الآخرة لأنه فيه .. «يَوْمَ تُبدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْض والسَّموَاتِ» .. فلا بد أن يحدث للسماء والارض فى ذلك اليوم .. إنقلاب رهيب يتناسب مع عظمتها وإتساعها فالسماء تمور ، تنفطر ، تنشق ويحدث فيها كل ما يؤدى إلى زوالها ودمارها .

القرآن عبر عن كل مايحدث فى السماء والأرض من ظواهر الدمار والفناء فقال الحق سبحانه وتعالى فى شأن السماء ..

«وَفُتِحتِ السَّماءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً»

(النبأ : ١٩)

والمعنى أن السماء مغلقة محبوكة الآن وليس فيها فتحات إذ قال الله تعالى .. «والسَّماءِ ذَاتِ الحُبُك» ..وكذلك «ثُمَّ ارْجِع الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ» «هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ» .. أىَ شقوق وفتوح .

والله سبحانه وتعالى يقول فى سورة التكوير (١/٢) ..

«إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وإِذَا النُّجُومُ انكدَرَتْ»

وفى سورة الطور (٩) يقول الحق ..

«يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً»

ويقول الله سبحانه وتعالى أيضا فى سورة المعارج (٢٨) ..

«يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ»

ويعنى هذا أنها تكون كالزيت المغلى فالشمس تتكور وتتغير عن هيئتها ، والنجوم تتكدر ويخبو ضوؤها .. ثم تموج السماء و تنشق وتموج وتنصهر .

وقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الانشقاق (٢) ..

«إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ * وأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ»

وغيرها فى سورة الفرقان (٢٥) ..

«يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَآءُ بِالْغَمَامِ»

السماء تنشق وتنفطر وتمور .. هذا هو ما يجب أن نؤمن به . أما كيف تتشقق ، وكيف تنفطر ، وكيف تمور ؟ .. فهذا ليس مهم أن نعرفه لأن السماء ستخرج عما ألفناه فيها وتنتهى إلى أمر لم نعهده بها ، وتخرج عن رتابتها ويخرج الكون كله عن رتابته .

السماء وكل مظاهر الكون مجبورة فى هذا اليوم على ما سيحدث لها .. والله سبحانه وتعالى فى سورة الانشقاق (٢) يقول عن السماء ..

«وأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ»

وكلمة أذنت .. تعنى إستحقت والأُذُنّ هى .. آلة الاستماع ، والاستماع نوعان :

- **الاول** .. تسمع وأنت حر فى أن تطيع .
- **الثانى** .. تسمع وليس لك خيار فى أن لاتطيع .

كذلك المستمع قسمان :

- **الاول** .. قسم له خيار ويقول .. «سمعنا وعصينا»
- **الثانى** .. قسم ليس له خيار ويقول .. « أتينا طائعين»

والكلام هنا عن السماء .. «فأذنت» يعنى إستحقت وقد قال الشاعر .

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بسر عندهم أذنوا

أى إستمعوا .. والسماع هنا ممن لايستطيع أن يعصى فالمعنى أن السماء إنقادت بمجرد ماسمعت فليس لها خيار وحق لها ذلك .. لماذا ؟ لأنها إستحقت ممن لاتملك معه خيار من القادر على تنفيذ مايراد منها .. اذاً فمعنى «أذنت» .. إنقادت على الفور لأنها إستحقت من ربها ، ومادام الإستماع من السماء ، والسماء لاخيار لها فى أى أمر بل هى مسخرة مجبورة مقهورة على تنفيذ مايراد منها .. فالمعنى إن السماء تنقاد لمراد الله فحق لها ذلك لأنه ليس لها خيار مع خالقها بل هى .. مخلوقة فلها الانصياع والإمتثال .

وثانى المظاهر هو .. مايحدث للأرض ، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الانشقاق (٣/٤) ..

«وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَافِيهَا وَتَخَلَّتْ»

العرب عندهم عبارة كانوا يقولونها هى .. مَدَدْتَ الأديم .. أى عندما يكشطون الجلد عن الذبيحة ويتركونه لكى ينتفعوا به فيدعونه ليكون مصلى أو فرشاً ، وكانوا يدبغونه على الطريقة البدائية بأن يتركونه فى الشمس فيتقلص ويحدث به ـ كرمشة ـ نتوء ، وأنت حينما تجىء بشىء مبسوط على الارض .. فاذا مدت الكرمشة يمتد الحيز والحجم لان الكرمشة كانت قد أحدثت إرتفاعا وإنخفاضا فلما يمتد .. يتسع وينبسط .

الحق سبحانه وتعالى كأنه يقول .. أن الأرض يوم القيامة ستمتد والنتوءات والقمم العالية ستنبسط ، وشرح القرآن الكريم هذا المعنى فقال الله سبحانه وتعالى ..

«فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً *
لاَّترىَ فِيهَا عوَجًا ولآ أُمْتاً»

(طه : ١٠٦/١٠٧)

السماء حينئذا تتمدد وتتسع لكى تسع الحشر كله لأنها ستتضم الناس وقوفا ،وليسوا وقوفا لضيق المكان بل المقصود .. إننا نكون واقفين لانستريح ، ولانجلس إلى أن يجىء دورنا .

ثم تلقى الأرض كل مافيها من الموتى .. «اذا القبور بعثرت» .. كما تلقى كل ما فى بطنها من .. الكنوز والدفائن والأرزاق التى كانت

أسباب للحياة بعد إنقضاء عالم الأسباب ، وقد شمل الله كل ذلك بالبيان فى قوله سبحانه وتعالى « وَأَلْقَتْ مَافِيهَا وَتَخَلَّتْ ».

ويحـــدث للجبـــال..

وثالث تلك الأهوال هو مايحدث .. للجبال ، وفى مسألة الجبال أخذت خطاً واسعا فى القرآن الكريم فقد وردت فى ٢٩ آية منها ١١ آية تتعلق بأحوال الجبال يوم القيامة ، وأجمعت الآيات فى وصف ما يحدث للجبال يوم القيامة بقوله سبحانه وتعالى فى سورة النبأ (٢٠) ..

« وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً »

الجبال وهى أثبت شىء يراه الإنسان على الأرض فيراها راسخة يشبه بها كل ثابت وراسخ .. « راسخ كالطور » .. والسراب الذى تتوهمه شيئا وهو ليس بشىء يعنى أصبحت .. هباء .. ولم يعد لها وجود ..

وإذا تتبعنا عملية تسيير الجبال فى القرآن الكريم وجدنا الحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة التكوير (٣/٢) ..

« وَإِذَا النجُومُ انكَدَرَتْ * وإِذَا الجِبَالُ سُيِرَتَ »

وفى سورة الكهف (٤٧) ..

« وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الارضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ »

وفى سورة الطور (٩/ ١٠) ..

«يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً *
وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً»

وفى سورة النبأ (٢٠)

«وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا»

فكلمة تسيير الجبال جاءت فى ٤ سور .. إلا أنه فى السور الثلاث لم تتعرض إلى ماذا تصير اليه الجبال بعد التسيير ؟.. ولكن فى سورة النبأ ذكر نهاية للتسيير بقوله .. «فكانت سرابا» .. فكأن النتيجة للتسيير أنها تصير سراباً .

إذاً هناك عمليتان .. تحرك الجبال من أماكنها ثم تصير سراباً ، وهل تسيير الجبال هو .. عين نسفها الذى جاء فى سورة طه (١٠٥/١٠٦) لقول الله سبحانة وتعالى ..

«وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا
رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا»

الجبال كما تعرض لها القرآن الكريم من حيث النسف وذلك فى سورة المزمل (١٤) ..

يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ
وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً»

كثيبا مهيلاً تعنى .. رملاً مهيلاً بعد ماكانت متماسكة ، والرمل الغير متماسك هل يبقى فى مكانه أم لا ؟.. نعم يبقى فى مكانه .إذاً ..

ليست سراباً لأن السراب شئ غير موجود لكن .. «كثيباً مهيلاً» .. يدل على التفكك والتفتت.. فالرمال لا تعطى العملية الأخيرة ـ التفتت ـ هذا ماورد بسورة المزمل وفى سورة المرسلات .. «واذا الجبال نسفت» .. أى أن الجبال قد تعرضت للنسف ، وكذلك فى سورة الواقعة (٦/٤) .

«إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا»

ويعنى تفتت الجبال .. وأن هناك نسف وتسيير .. والتسيير جاء فى سورة النبأ مقرونة بالنتيجة ، وهى أنها بعد التسيير تصير سراباً ، ولكن النسف معناه أنها تفتت وهذه هى عملية النسف فالمعنى أن النسف هو التسيير أو النسف لبعض الجبال والتسيير لبعضها الآخر وذلك لإختلاف طبيعة الجبال .

إختلاف طبائع الجبال هو مايجعل الحالة التى تؤول إليها لتصير إلى عدم حيث تأخذ صورتين ..

- الأولى .. صورة التصيير .
- والثانية .. صورة النسف .

وحديث القرآن عن النسف الحادث كما فى قول الله سبحانه وتعالى فى سورة المعارج (٩/٨) ..

«يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ»

ومرة أخرى يقول الله فى سورة القارعة (٥)..

«وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ»

العهن هو .. الصوف الملون ، والمنفوش يعنى .. المندوف ولكن هل الجبال عندما تتحول إلى كثيباً مهيلاً فهل تماسك الرمل مثل تماسك الصوف ؟.. أى أن الجبال ستتعرض لعمليتين إثنتين هما ..

- العملية الأولى .. تسير فتصير سراباً .
- العملية الثانية .. وهى بعد النسف فتجعلها كثيباً مهيلاً .

الجبال لابد لها من عمليات تحول أخرى لأنها لو ظلت كثيباً مهيلاً لما تحقق مدها وبسطها .. إذا تصير كالعهن المنفوش ثم تصير سراباً .

والخلاصة ..

الكل إلى زوال لأنه لم يعد لأى منها مهمة لأننا فى الآخرة لن نعيش بالأسباب ، ولا بالعلل ، ولا بالمعلومات ، ولا بالمقدمات ، ولا بالنتائج فليس لنا مجهود أبداً .. سنعيش بأثار قوله سبحانه وتعالى .. كن من الحق مباشرة دون أى سبب من الأسباب .

والخلاصة .. أن القيامة هي يوم يحيط الانسان من جميع نواحيه بالدواهي العظام .. وقد عبر الله سبحانه وتعالى عن هذا المعنى بقوله فى سورة الغاشية (١) ..

«هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْغَاشِيَةِ»

أى أن فى ذلك إستفهام .. دال على إنها أمر عظيم جداً يجب أن يتنبه اليه الناس لأن مادة الغاشية تدل على .. الداهية العظمى التى تغمر الإنسان من جميع نواحيه كما يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة طه (٧٨)..

«فَغَشِيَهُم مِنَ الْيَمِّ مَاغَشِيَهُمْ»

* * *

٣

الإيمان بالبعث

إختلف الكافرون فى إنكار البعث فمنهم من ينكره إنكاراً جازماً ، وهؤلاء يصورهم القرآن الكريم بقوله تعالى ..

«أءِذَا متْنَا وكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ ءَابَاؤُنَا الأَوَّلُون»

(الصافات : ١٧)

ومنهم من يشك ولا يجزم بالإنكار وهم المرتابون .. «إنا لفى شك» .. ومنهم من يعلق الإيمان بالبعث على معرفة موعده ..

«وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِين»

(يونس : ٤٨)

الأدلة على قياس الناس للحساب يوم البعث قائمة .. ولكن خطأ الكافرين بالبعث إنما جاء من ناحية .. منهج التفكير ، وذلك أنهم أرادوا أن يناقشوا الجزئيات العقدية التى لا يمكن أن تأتى من عاقل أبداً

ونحن نؤمن ..

نحن المؤمنين بالبعث لم نؤمن باليوم الآخر أولاً ليكون إيماننا به سبباً فى إيماننا بالله .. وإنما آمنا أولاً حين آمنا بالله ، وقال الله لنا أن هناك يوماً آخر فصدقنا ماقاله الله لنا .

إذاً فالمناقشة يجب ألا تكون فى اليوم الآخر .. وقوفاً وإستبعاداً وإستغراباً وتعجباً ، ولكن يجب أن تكون المناقشة فى القمة العقدية فى الإيمان .. تؤمنون بالله أو لاتؤمنون به فإذا أنتم آمنتهم فالتزموا .. وإن لم تؤمنوا بما يقوله الله سبحانه وتعالى فما الذى يصير؟.

القمة الإيمانية هى .. أن نؤمن بالله ، وإن نؤمن بالملائكة ، والكتب والرسل ، والقضاء والقدر خيره وشره ، واليوم والآخرة .. إلا أن الله سبحانه وتعالى قال ذلك لأنها .. أمور غيبية ، والأمور الغيبية التى لا تقع تحت الحس لا يمكن أن نصدقها إلا إذا قال بها من نثق بصدقه .. فإذا توقفت عقولنا عن الكيفية نقول .. لا .. معرفة الكيفية لا تعنى صدق وقوع الحدث أو عدم صدق وقوعه .. الحدث شئ وكيفية وقوعه شئ آخر مثال ذلك ماقاله ابراهيم عليه السلام لربه ..

«أرِنى كَيْفَ تُحيِى الْموْتَى قَالَ أوَلَم
تُؤْمِن قَالَ بَلى وَلَكِن ليَطْمئنَّ قَلْبِى»

(البقرة : ٢٦٠)

جاء العلماء فقالوا .. كيف يوجد هذا التناقض الظاهرى فى القرآن ؟..إن الله سبحانه وتعالى قال له إبراهيم عليه السلام ..

«أرِنى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتىَ» قال الله .. «أَوَلَمْ تُؤْمِن» .. فأجاب إبراهيم عليه السلام.. «بَلَى».. ومعنى بلى.. آمنت، ومعنى آمنت .. إطمأن قلبى إلى عقيدتى بحيث لا تطفو مرة أخرى إلى الذهن لتناقش من جديد فإن طفت العقيدة إلى الذهن لتناقش من جديد لا يكون ذلك إيماناً ، ولا تكون عقيدة بل تبقى فكرة لا تزال موضوع بحث .

الكيفية والعقيدة ..

وإذا كان إبراهيم عليه السلام قد آمن وإطمئن قلبه فلماذا يقول ؟.. «وَلَكِن لّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى» .. كأن كان إطمئنان القلب مفقوداً فهو يطلبه ، ومادام إطمئنان القلب غير موجود فكيف يقول .. بلى يعنى آمنت ماكان يصح لإبراهيم عليه السلام أن يقول .. بلى يعنى آمنت لأن الأطمئنان مازال غير موجود . نقول .. لا هذا التناقض الظاهرى الذى ظننتموه فى الآية إنما جاء لكم من إهمال لفظ فى الآية ، وإهمال لفظ أو حرف يغير مجرى الفهم فى الآية .

وإبراهيم عليه السلام لم يسأل ربه ليقول له .. أتحيى الموتى ؟.. وإنما فقال له .. «كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى» .. فالسؤال عن الكيفية لا عن أصل وقوع الحدث فهو مؤمن بأن الله يحيى الموتى .. هذه قضية مسلم بها عند إبراهيم عليه السلام ، ولكن المسئول عنه ـ أى السؤال ـ أنه يريد أن يعرف الكيفية فقوله .. بلى يعنى أنا آمنت بأنك تحيى الموتى ، وهذا هو المطلوب التكليفى من العبد المكلف .. بأن يؤمن بأن الله يحيى الموتى . أما معرفة الكيفية فهذا أمر لا يضر فى العقيدة سواء عرفتها أو لم تعرفها لأن إنتفاعك بالأشياء لا يعنى بالضرورة فهم كيفياتها .

كذلك الله سبحانه وتعالى قادر على أن يحيى الموتى .. أما كونك تريد معرفة الكيفية فهذه صنعة إله ، ولذلك لفت الله إبراهيم عليه السلام لفتة عقدية وكأنه قال له .. إن من عظمتى أن أنقل إلى الغير ـ البشر ـ بعض قدرتى ليفعل .. كما يحمل القوى عن العاجز حِملاً لا يستطيع العاجز حمله ، ولهذا كان جواب الحق سبحانه وتعالى لإبراهيم عليه السلام حيث قال ..

«فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ
عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا»

(البقرة : ٢٦٠)

لم يقل .. أنا ادعوها لك لتأتيك بل جعله هو الذى يدعوها فتأتيه .. إذاً أجاب الله بالكيفية على أوسع نطاق من الكرم التعليمى .

ولهذا فالذى يبحث أولاً فى قمته الإيمانية فهذا يعنى نقاش موضوع الإيمان بالله بمنتهى الحرية العقلية ، وبعد ذلك إذا إقتنعت بالإيمان بالله وأنت فى كامل حريتك العقلية فلابد أن تثق بأخبار الله .. فإن وثقت بالخبر من الله وجب الإلتزام به .. أما أن تناقش أمراً جزئياً ، وتترك القمة فهذا خطأ فى منهج الفكر الدينى .

إنكم لمبعوثون ..

إنظروا إلى قول الله سبحانه وتعالى ..

«قَدْ نَعْلَمُ إِنَّه لَيَحْزُنُكَ الَّذى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِين بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ»

(الأنعام : ٣٣)

فقد قالوا فى القرآن .. سحر ، شعر ، كهانة .. كل ذلك قالوه ، وبعد ذلك تورطوا فقالوا ..

«لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِمٍ»

(الزخرف : ٣١)

فكأن القرآن أصبح قرآناً عندهم ، ولكن الذى أتعبهم ألا يجيئ على لسانٍ هذا النبى بالذات ، وتورطوا تورطاً آخر يدل على خطأ المنهج فى نقاش المسائل الدينية فقالوا ..

«إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ»

(القصص : ٥٧)

إذاً فقد أقروا بأن ماجاء به رسول الله ﷺ هو .. الهدى لكنهم خافوا إن هم إتبعوا الهدى أن ينخطفوا من أرضهم فرد الله عليهم بقوله ..

«أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا
يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ»

(القصص: ٥٧)

إذاً كنتم وأنتم الكافرون به مكناً لكم حرماً آمناً يجبى اليه ثمرات كل شئ .. فهل إذا آمنتم به أيتخلى عنكم ؟.. فلو إنهم بحثوا فى القمة ، وإطمأنوا إليها لما إضطربوا ، ولا أنكروا ، ولا شكوا ، وعندما قالوا ..

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ
تُرَاباً وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ»

(المؤمنون : ٣٥)

عندما تساءلوا فيما بينهم أو فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ عن النبأ العظيم .. «الذى فيه يختلفون».. فإنه من المنطقى ألا يبحثوا عن يوم البعث إنكاراً ، وإنما كان يجب أن يبحثوا فى القمة وبعد ذلك إذا إطمأنوا إلى القمة يوثقون الخبر .. هل قال الله ذلك أو لم يقل ؟.. وعلى هذه الوتيرة نجد إنكار الكافرين المفكرين تبدأ من الجزئيات .. وهذا منهج خاطئ !

❑ ❑ ❑

فأمـــا ....

الميزان والجزاء

ثانياً ....

١

الموقف العظيم

الله سبحانه وتعالى فى تصدير فزع الناس يوم القيامة فى سورة الحج (٢) قال ..

«يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ
أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا
وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَاهُم بِسُكَارَى»

وقوله أيضاً فى سورة عبس (٣٤) ..

«يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ»

وكما قال الله سبحانه وتعالى فى سورة إبراهيم (٤٣) ..

«مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ
لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ»

ولكن التصور الذى يدع الخيال يذهب بالإنسان كل مذهب هو قول الله سبحانه وتعالى .. «يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوث» .. الناس مفردها .. إنسان والناس الذين هم أعظم جنس فى الوجود يمثلهم الله فى هذا اليوم بأتفه شئ فى الوجود ، وهو الشئ الذى يتطاير حول الضوء .. فعندما تضئ مصباح فى الخلاء تجد أشياء دقيقة تتهافت على المصباح ، ويمكن أن تلتصق به وتموت .. هذا هو الفراش ، والفراش المبثوث يعنى المنتشر فتجد فيه إضطراباً وحركة على غير هدى .. فذلك يحدث للإنسان المتوازن الذي هو .. سيد هذه الأجناس ويصبح كأتفه شئ فى الوجود .

يومئذ الناس سواسية ..

والناس الذين هم .. أرقى الأجناس يتصرفون فى الجماد ، والنبات ، والحيوان ولهم قدرات علمية ، وسيطرة وغرور بإمكانياتهم يصبحون .. كالفراش المنتشر يعني .. شئ تافه ، وبه إضراب على غير هدى لا شئ يضبط حركته .. ومادام فيه إضراب ، ويصير الناس على غير هدى فلابد أن يكون هناك .. هول ، وهذا الهول هو الذى أفقده كل شئ !! .

والتعبير هذا يدل على الإختلاط فليس كل قوم لهم مكان خاص يقفون فيه ، ولا لكل أمة حاجز يحجزها عن غيرها من الأمم ، ولا للرجال مكان غير مكان النساء ، وذلك ..

«لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ»

(عبس ٣٧)

.. المسألة إختلطت إذا ..

«فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَآءَلُونَ»

(المؤمنين : ١٠١)

كل فرد ذهل عن .. مكانه ، وكل فرد ذهل عن .. عظمته ، وكل فرد ذهل عن .. مقوماته أى ..

«يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ»

.. لأن هناك طامة كبرى !!

وتشبيه الناس بالفراش فى القرآن مثل تشبيه رسول الله ﷺ للناس بالفراش بقوله فى حديثه الشريف ..

«إِنَمَا مَثَلِى وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَاراً فَجَاءَ الْذُبَابُ وَالْفَرَاشُ يَتَهَافَتَ عَلَى النَار وَأَنَا آخِذُ بِحَجْزِكُمْ وَلَكَنَكُمُ تَفْلِتُونَ مِنِّى»

فجاء الذباب والفراش يتهافت على النار وأنا آخذ بحجزكم ولكنكم تفلتون منى»

ويعنى ذلك أن الذى يتهافت على النار أشد بعداً عنها ، وأنا أريد أن أنجيكم ، ولكنكم تتحايلون على لكى ترقموا فى النار .. منهجى يبعدكم عن النار ، وإنما أنتم تتحايلون لكى تذهبوا إلى النار ، ويعجبكم

البريق ، ولا تدرون العاقبة .. والمحتالون على التكليف يفهموه أنهم يذهبون إلى شئ معجب ، وفى الحقيقة هم يذهبون إلى شئ معطب .

الحساب ..

وبعد ذلك تأتى مرحلة الحساب .. كلنا سيعرض للحساب هذا هو منطق العدل ، ومنطق العدل إننا جميعاً سنحاسب لأنه لا يوجد أحد منا أبداً صفحته خالية والحساب سيكون على نوعين ..

- **الأول** .. حساب لعرض ذلات الإنسان ، ويقول لك الله سبحانه وتعالى .. هذه وهذه لكننى غفرتها ولذلك قال رسول الله ﷺ للسيدة عائشة ..

  «ذلك العرض .. ولكن من نوقش الحساب هلك» .. فالخوف ليس من الحساب ،. وإنما الخوف من مناقشة الحساب والعرض لإظهار نعمة الإمتنان بأنك قلت وفعلت لكن الله ترك لك ذلك وتلك .

- **الثانى** .. الله سبحانه وتعالى يقول ..

«فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورا »

(سورة الإنشقاق : ٧)

هذا هو السرور .. ويقول الحق ..

«وأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ»

(الإنشقاق : ١٠)

وهناك آية تقول ..

«وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ»

(الحاقة : ٢٥)

أى أنه سيأخذه من وراء ظهره بشماله خجلاً حتى من الذى يناوله الكتاب .. «يَدْعُواْ ثُبُوراً» والثبور هو الهلاك .. أى أن الشقى يرى أن الموت خير له من هذا الموقف وخير له من الهلاك الذى يراه .

الميزان والجزاء ..

مراحل الحساب كثيرة ..

- **المرحلة الأولى** .. الناس يخرجون فتطاير لهم صحف أعمالهم فيأخذونها .
- **المرحلة الثانية** .. وبعد أن يأخذوا صفحات أعمالهم يسروا مافيها ، وبأنها مطابقة يدخلون فى الحساب من الحق .
- **المرحلة الثالثة** .. الميزان .
- **المرحلة الرابعة** .. الجزاء .

والحق يقول .. «فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ» وهنا الكلام فيه موازين ، وفيه عيشة راضية ، ومعروف أن الميزان هو آلة لضبط الحقوق فى الماديات ، ويلاحظ أن العلماء قالوا .. أهو ميزان مثل ميزان الدنيا لك كفتان ولسان .. لكن أجمع جمهور العلماء على أنه ميزان يناسب مقامه وبهذا الشكل له كفتان .

هل الأعمال .. أمور مادية بحيث توزن ؟! .. أبداً ، ولا مانع أن يجعل الله للأمور المعنوية شيئاً له ثقل إذ أن الحق سبحانه وتعالى أعطى فى التمثيل المخيف للموت الذى هو أمر معنوى قال .. ثم يأتى الموت فى صورة كبش فيذبح .. إذاً المعانى قد تتمثل فى أشياء لها وزن .

الرحمة تجعل
الميزان ثقيلاً ..

الحق سبحانه وتعالى حينما تعرض لكلمة الميزان ولعملية الوزن قال .. ثقلت ،خفت أى أن العملية الميزانية عقلياً لابد لها من ثلاث مراحل هى .

- الأولى .. الكفة هذه تثقل ، والكفة هذه تخف .
- الثانية .. الكفة هذه تخف ، وهذه الكفة تثقل .
- الثالثة .. الكفتان يصيرا متساويتان .

الحق سبحانه وتعالى جاء بثقلت وخفت ، ولم يأتى بالقسمة فى تساوت .. والقسمة العقلية فى أنها تتساوى لم يقل عندما تتساوى ماذا تفعل ؟..

فى سورة الأعراف (٤٦) قال الله سبحانه وتعالى ..

«وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ»

لماذا ؟ .. لأنه توجد قضية وهى أن الرحمة سبقت الغضب فمسألة تساوى الحسنات والسيئات تئول الى مسألة الرجحان .. ومسألة تساوى الكفتين داخلة فى .. «فأما من ثقلت موازينه» .. عندنا ثقلت وخفت أى تتساوى .. تتساوى عندنا قضت أن الرحمة سبقت الغضب .

ما معنى الرحمة سبقت الغضب ؟ .. المعنى أن الشىء اذا أستوجبت رحمة وإستوجبت غضباً فتكون الرحمة لها المقام ، وعند التساوى .. تزيد الرحمة .. «لم يدخلوها وهم يطمعون» .. أى ستصير الى ماذا ؟ .. أى إنها ثقلت بالالحاق .

قول الحق .. «فأما من خفت موازينه» .. تعطينا صورتين فى الواقع ولكن فى عملية الالحاق ستصير ثلاث صور لان تساوى الكفتين سيئول الى أن الرحمة تسبق الغضب .. فالرحمة فى الميزان المتساوى فتجعله ثقيلا أى أن قوله ..«فأما من ثقلت» .. واقعا وحقيقة أو الحاقاً بواسطة عنصر الرحمة حين تتدخل فى عملية التساوى .

سأل الامام على رضى الله عنه .. أى مقدار من الزمن يتسع لحساب الله لكل الناس ؟ .. أيحاسبهم مرة واحدة ؟! .. قال .. نعم كما يرزقهم مرة واحدة ، وليس رزق إنسان بشاغله عن رزق الآخر لأن الطاقة تُشْغِل اذا كانت محدودة ، ولكن الطاقات غير المحدودة تعمل هذا وهذا .. سبحانه من لا يشغله شأن .

* * *

٢

الميزان لاقامة العدل بالقسطاس

الميزان اذا كان مادياً ، وسيحدث فيه عملية نقل للأعمال المعنوية الى مادية .. لماذا لانعد الميزان وننقله الى معنويات ؟ .. يصح هذا مادام فيه عملية نقل لاعمال معنوية ، وأنت تقول .. مادام هناك ميزان مادى فهناك تصور الاعمال لأشياء لها ثقل ، ومادام سيحصل التحويل فى شئ فلماذا لم يحصل التحويل فى شىء واحد وهو .. الميزان بأن يكون أمراً معنويا فالمراد إقامة العدل بالقسطاس ، وسنضطر الى أن ننقل الإعمال من معنويات الى الماديات .. والاعمال كثيرة فمن الاولى أن نفهم أن الميزان أمر معنوى ، والمراد به إقامة العدالة المطلقة .. إنظر من هو أدق ؟!

الضبط فى التقدير
لاهوى ولا مجاملة ..

الميزان اذا كان أمراً معنوياً لايؤمن وليس فيه هوى والناس يقولون .. وش الميزان حديدأى لايستحى ، فاذا كان الحكم فى المعنويات التى لانستطيع أن ندقق فيها لمعرفة العدل المطلق .. فكأن العدل المطلق ثقل لشىء هو .. الجماد الذى لايجامل ، ولايوجد لديه عواطف ولاغيرها باعطائه الامر بالدقة ..

نحن فى موازيننا عندما نريد أن نزن شيئا بكل دقة فإننا نزن بميزان حساس .. لماذا ؟ لان هذا الميزان الحساس يكون الاختلاف فيه لأقل شىء له قيمة ، وإنما عندما نزن به برتقالا أو ملحاً أو غيره فزيادة جرام أو جرامين فهذا شىء لايهم .. بينما الواحد من عشرة من الجرام فى الاشياء الثمينة له قيمة .

المراد بالدقة التى لا هوى فيها ولا مجاملة والتى يردها لشىء ليس له عواطف ولا فكر هو .. الميزان الحديد فسواء كان هذا الميزان هو .. الميزان المادى أم كان ميزانا معنوياً .. فلماذا أختير له كلمة الميزان ؟ .. أختير لأنه أضبط شيء فى تقدير الامور ضبطاً .

القاضى عندما يجلس يضع خلفه صورة ميزان فهل القاضى يزن أشياء لها ثقل ؟ .. لا بل يزن أشياء معنوية ، ولكن الميزان يذكره بأنه يدخل فى المعنويات كما يدخل هذا الجماد بلا هوى منه ويعنى .. الحق والعدل ، يعنى ألا تكون عاطفته مائلة فهذا الميزان الحديد لا يجامل هذا ولا ذاك فكأننا عندما ننصب له الميزان نقول له ..

كن فى عواطفك مثل الحديد ، وإياك أن يكون لك هوى وهذه مسألة دقيقة بالنسبة للتكوين البشرى فليس سهلا على الإنسان أن يكون كذلك ، ولذلك إذا كان كثير من الناس لا يقدرون على هذه المسألة فيمتنعوا عن القضاء لانه لا يجوز أن يفضوا بين الناس ولا يقدرون أن يكونوا بدون هوى ، ولاعواطف لأن العواطف لها تأثير .

وذهب قاضى إلى الخليفة عمر بن الخطاب وقال له .. يا أمير المؤمنين إعزلنى عن القضاء فقال له .. ولم ؟ وهل نجد أعدل منك ؟ .. فيقول .. ياأمير المؤمنين شاع عند الناس أننى أحب الرطب فبينما أنا فى البيت إذ طرق طارق الباب فخرج خادمى وعاد إلى بطبق من الرطب وكان الرطب فى بواكيره .. فأنظر ما المشكلة ؟ فلما رأى الرطب قال لخادمه .. من الذى أحضره ؟ قال .. رجل .. قال .. صفه لى ، فوصفه فقال القاضى .. رده اليه !! .. لأنه عرف أن رجلا بهذه الصفة له قضية عنده فرد له رطبه .. فلما أصبح وجلس مجلسه للقضاء إذ بالرجل وخصمه يدخلان وقال .. فوالله ياأميرالمؤمنين ما أستويافى نظرى رغم انى رددت الطبق .. قلت هذا إنسان ذو ذوق يعرف إننى أحب الرطب لم أستطع أن أسوى بينهما أبداً رغم إننى رددت الطبق فما بالك لو كنت أخذته ؟!.

المسألة ليس فيها عواطف أبدا إذا كانت العدالة مضمونة ، ميزان من حديد ولسان وذراع من حديد ليس لها عواطف ولا أى شىء ، وأخشى ما يخاف فى الحكم هى أن تساق عواطف الذى يحكم من غير قصد فتجعله يميل ولو بلحن الحجة .

الرسول ﷺ يقول .. إنما أنا بشر وأنكم تختصمون الى ولعل أحدكم أن يكون الحن بحجته ..

مامعنى الحن بحجته ؟ .. يعنى عنده قوة عرض وإقناع ، ويلبس الباطل ثوب الحق وتجوز المسألة علىّ فأحكم له !

* * *

٣

من ثقلت موازينه

الميزان اذا فهمناه بأنه .. العدل المطلق ، أو سواء فهمناه بأنه ميزان مادى أى يفهمنا بأن المراد به .. الحق والعدل ، لماذا جاء بكلمة الميزان ؟ .. لقد ذكرنا أن الميزان حكم محكوم لاهوى له مطلقا لأن الهوى إنما ينشأ من العواطف ، ومن الميول ، والحديد والجماد لا عواطف لها ولا ميول فكأن كل إنسان سيأخذ حقه .

«فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ *
فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ»

ماهو الرضى حتى تكون العيشة راضية ؟.. العيشة هى الحال التى يكون فيها الانسان .. أى من قصر يسكنه ، ومن نعم يتنعم بها ، ومن ملبس يتزين به .. هذه إسمها العيشة وتكون هى مجموعة من

الظروف المحيطة بالانسان التى تكون له مقومات حياته ومعيشته ، وهذه المقومات كلها لاتبقى راضية لأن الرضا فى وجود الراضى .. اذا كلمة راضية نقلت معناها وهى ممن يملك رضا وعقلاً الى آخر من لايملكها .

الحق سبحانه وتعالى قال .. « عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ » .. فهنا يقولون أن أسم الفاعل إستعمل واريد به اسم المفعول مثل قوله سبحانه وتعالى ..

« وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً ».

(الاسراء : ٤٥)

هل هذا الحجاب يكون مستورا أو ساترا ؟ .. نعم يكون الحجاب ساترا .

خلود نعيم الآخرة ..

الحق سبحانه وتعالى وصف العيشة بأنها راضية ، والمستعمل فى أعراف الناس ولغة الناس أن الرضا إنما الى ذى العقل ، والى ذى الإرادة فكأنه حسب منطقنا فى لغتنا أن نقول .. عيشة راضٍ عنها صاحبها ، ولكن الحق حين يعدل عن أسلوب شائع على ألسنة الناس الى أسلوب يناسب بلاغة كلامه عن كلام البشر فاننا نلاحظ موضوحات الاسلوب الاعجازى القرآنى عن الاسلوب البشرى .

الناس فى الحياة الدنيا يحبون النعيم ، ويحبون أسباب السعادة ، ولكن الذى ينغص عليهم ذلك الحب هو .. خوفهم أن تزول السعادة عنهم ، وهذا الشعور يجعل الانسان لا يعيش الحياة الحاضرة سعيدا ، ولكن قلبه قلق على مستقبل هذه الحياة السعيدة هل تستمر له السعادة .. أو لاتستمر له هذه النعمة .. أم ماذا ؟ .

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا .. إن المعنى الذى يقلق الناس فى نعيمهم وسعادتهم فى الدنيا لا يوجد فى الاخرة لأن النعمة والسعادة فى الاخرة تتعلق بك ، ورضاها عنك يجعلها لاتملك أن تزول عنك ، وهى لاتملك أن تزكيك ، وهى ليست فقط مسخرة بحيث لاتتركك ، ولا تتخلى عنك بل هى تعيش معك ، وتدوم معك دوام الراضى عنك .. والراضى عن الشىء يلازمه ويحبه ولاينفك عنه أبداً .

الشىء الذى يقلق الناس فى الدنيا يريد الحق أن يطمئنهم إلى أن ذلك غير موجود فى الآخرة .. فلا تخف أن تزول نعمتها عنك ، ولاتخف أن تنفك السعادة عنك لإنه لا إرادة لها فى أن تتخلى عنك ، ولاأن تزول فقد أصبحت مالكا أنت لزمانها لأن أمور النعيم فى الدنيا إنما تكون بما تشتهيه أنت ، وعلى قدر ما أحسنت فى دنياك بأن تتبع منهج الله ، وتقيد حريتك فى سبيل منهج الله فأنك تأخذ مطلق الحرية فى الآخرة فتستدعى أنت من نعمة ماشئت بمجرد الخواطر !! .

اذا جاءت لك النعمة فهى نعمة مستقرة دائمة ، وليس إستقرارها ، وليس دومها فقط ، وإنما هى .. دوام المحب لا دوام المكره فهى تحبك ، ولذلك تحرص عليك فلا تنفك عنك أبدا .

الجنة وعد للمتقون ...

الجنة فى قول الله سبحانه وتعالى ..

«مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ»

(محمد : ١٥)

والجنة أمر غيبى وجزاء غيبى لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ، والرسول ﷺ عندما حدد هذا التحديد قال .. أن الأشياء التى فى الجنة لا رأتها عين ، ولا سمعتها أذن ، ولا خطر على قلب بشر ، ونجد أن الحديث مترقى فى الندرة لأن سماع الأذن أوسع دائرة من رؤية العين ، وخطورة الخواطر على الفكر أوسع دائرة من الأذن، والذى تسمعه الاذن أكثر مما تراه العين ، والذى يخطر بالبال أشمل .. فإذا كان فى الجنة مالا عين رأت فلماذا متعلقات مسموع الاذن أوسع من رؤية العين ؟

رؤية العين تجربة حسية بك ، وإنما أذنك تنقل لك مرائيك ومرائى غيرك .. أى أن الذى لاتراه يقال لك أن الاذن تسمعه وهى أوسع دائرة وخطورة على القلب من مرائى العين .

اذا كان فى الجنة مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر فمن أين توجد ألفاظ لتعبر عما لم تراه العين ، ولم تسمعه

الأذن ، ولم يخطر على القلب ؟.. ومع أن اللغة إنما تضع الفاظ لمعان شخصت وحددت فى النفس ، فإذا لم يكن فى اللغة الفاظ تؤدى المعنى ، فالحق سبحانه وتعالى لا يعطى صورة للجنة ، ولكن يعطى مثلاً مقرباً للجنة من الأشياء التى نعرفها ونتصورها ، ومع ذلك حين ينقل لنا مثلاً وليس حقيقة ، فلا يأتى بالمثل على إطلاقه بل يأتى بالشئ الذى مُثّلَ به الجنة من أمور الدنيا فينتزع منه أشياء ، ويعطى له أشياء أى لا يجعل المثل مطابقا للحقيقة بل يقرب المثل من الجنة لان الحق يقول ..

«فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ»

(السجدة : ١٧)

وما دمنا لا تعلمه فلم نضع له لفظاً .. ومادمنا لم نضع له لفظاً فليس فى لغتنا ما يؤدى معنى الحقيقة .

الله يريد أن يعطينا صورة عن الحقيقة فيعطى مثلاً صورة لخمر الآخرة يقول فى سورة الصافات (٤٧) .. «لا فِيهَا غَوْلٌ» أى إنه نزع من المثل شيئاً ضاراً ، وهو أن آفة خمر الدنيا إنها تغتال العقل .. يقول لهذه أنها ليست فيها .. غول أى نزع منها وصفاً كان لها ليس لكى يعطينا الحقيقة بل ليعطينا المثل فقط . فالشئ على حقيقته فى الدنيا لا يعطى أيضاً المثل على حقيقته فى الآخرة فيتصرف فيها بأن ينفى منها أشياء حيث يقول «لا فيها غول» .. كما يعطى لها أشياء ليست موجودة فى الدنيا فيقول الحق فى سورة محمد (١٥) «خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ» .. وخمر الدنيا لا تُشْرَبُ للذة أبداً إنما تشرب لأثرها فطعمها

لا يستساغ مثل الذى يشرب خمراً لا تراه يشربها ويتلذذها كما تشرب كوباً من عصير المانجو أو الليمون بل ـ الخمر ـ يسكبها فى فمه سكباً ليقلل من بطئ مرورها على مذاقه فهى شئ غير مستساغ ولا يتلذذ به.

جـــنة ليـــست كالدنيا فى شئ !!

الله سبحانه وتعالى أراد أن يعطينا مثالاً عن الآخرة فلم يترك المثال على ماهو موجود فى الدنيا ، وإنما جاء إلى مثال فى .. الدنيا ونزع منه شيئاً وأعطاه شيئاً إذ يقول الحق مثلاً .. أن نبق السدر الذى فى الجنة .. « سدر مخضود » ينزع منه أذى الشوك الذى فيه ..

« مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى »

(سورة محمد : ١٥)

وعندما يعرض الحق سبحانه وتعالى ألواناً من الفاكهة يقول .. عنب ، ورمان ، ونخيل من الأشياء الموجودة عندنا فى الدنيا .. لماذا ؟.. لأنه لو جاء بأشياء لا توجد لها نظائر فى الدنيا وذلك كذهابك إلى بلد من البلاد وجاءوا لك بنوع من الفاكهة ولم نتناوله من قبل فليس ممكناً أن تقبل عليه لأنك تخافه ، ولكن عندما يقدم لك تفاحاً فأنت تعرف

طبيعته فى الدنيا فهل تقبل عليه أو لا تقبل عليه ؟.. نعم تقبل عليه لأنه تفاح تألفه نفسك فى الدنيا ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى ..

«كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا
هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا»

(سورة البقرة : ٢٥)

المقصود هنا هو التشابه لماذا ؟.. من أجل أن يؤنسك باستعماله لأنه لو جاء لك بشئ جديد لا تعرفه فيمكن أن تتردد أو تتهيب ولا تأكله ، وإنما عندما يأتى لك بموز فأنت تعرفه أو جاء بتفاح أيضاً أنت تعرفه ولكن بعد أن تأكله تجده شيئاً آخر !! .

وأيضاً إذا جاء لك بأشياء لم تكن لها نظائر فى الدنيا ربما تقول فى نفسك .. أن هذا الشئ ليس له نظير فى الدنيا أى أنه مهما بلغ من الحلاوة ، ومهما بلغ فى الجودة تقول .. أن طبيعته هكذا يحدث لو وجد فى الدنيا كان سيبقى بهذا الطعم ! ويقول لك الحق .. لا كان هذا فى الدنيا شئ ، ولكن ليس بهذا الطعم فى الآخرة .

بكاء فى الأرض والسمـــــاء !!

الامام على كرم الله وجهه حينما قُرِئَ عليه قول الله سبحانه وتعـالى . .

«فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالأَرْضُ»

(الدخان : ٢٩)

قالوا له .. أو تبكى السماوات والأرض ؟ .. قال . نعم تبكى ، وتفرح ، وتضحك ، ومادام الحق قد نفى أن السماء لا تبكى على ذهاب آل فرعون .. فمعنى هذا أنها تبكى على ذهاب غيرهم فقال على رضى الله عنه .. إذا مات إبن آدم بكى عليه موضعان ..

- موضع فى السماء .. فهو مصعد عمله أى مصعد عمله الطيب يبكى لأنه سيحرم من أن يصعد إليه عمل .
- وموضع فى الأرض .. لأنه المكان الذى يصلى فيه الإنسان يعشقه ، ويحبه ، ويألفه فإذا مات ذلك الإنسان المُصَلّى فإن المكان الذى كان يصلى فيه لله يبكى عليه ويحزن .

الحق سبحانه وتعالى حينما يقول .. «عيشة راضية» يُمكِّنُ لنا أسباب النعيم أتم تمكين .. فنعيم الآخرة على غير النعيم فى الدنيا أى العيشة راضية عنك .

أما الذين يقولون من العلماء .. أن التعبير القرآنى عبر براضية أى مرضية فَشَرْحٌ لم يصل إلى المألوف فى كلام البشر ، والمهم أن ترتقى فى المعنى إلى دقيق المعانى المرادة قرآنياً ، ونرى بلاغة كلام الله التى نستنبطها من القرآن حسب الكلام البليغ الذى قاله الحق سبحانه وتعالى .

* * *

٤

من خفت موازينه

وتلك هى المقابلة ، والمقابلة هنا هى .. من خفت موازينه فى قول الحق سبحانه وتعالى .. «فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ» .. أى أمه نار .. «وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ» .. فعظمة هذا الأسلوب تتجلى فى أن يصدر الأسلوب بالتصدير المطمع ثم ينهيه بالتيئيس المفجع ، وتلك النقلة عملية نفسية مرادة للحق فنجد مثل هذه الأساليب كثيرة فيقول .. فبشرهم بأن الله يغفر لهم لأن البشارة تكون بالخير فتستشرف نفوسهم على أن هناك منقذاً ، وأن هناك مغيثاً ، وأن هناك منجياً .

الإنسان حين يستغيث من شئ مؤلم .. فإنه يريد أن يخفف عن نفسه ذلك الألم المؤلم أى إنه يطمع فى شئ يخلصه من العذاب فتستشرف نفسه .. «وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُوا» .. لا ولكن .. «بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ» .. بأشد مما هم فيه فكأنه إبتدأ الأسلوب مطمئناً ثم إنهاه

موئساً فلم يترك اليأس ، ولم تنبسط النفس ، ولم تستشرف إلى معنى ينقذ ومعنى يغيث ، ولكن يفتح له باب الأمل واسعاً فبشرهم ثم بعد ذلك يأتى بالمبشر به فيجده .. عذاباً .

العـذاب ..

الأم فى الحياة مصدر العناية ، وتشعر الإنسان بجهات من العطف والحنان ، والنار تتهافت على المعذب بها كما تتهافت الأم على وليدها فتحتضنه ، وتضمه .. كذلك يكون شأن النار لأنه الإنسان المعذب الذى لم يرع نعمة الله فى تلك الأم التى خلقها الله وهى لا إرادة لها ، ولا قوة ، ولا تعقلاً ، وبعد ذلك سخرها له بما أودع فيها من عطف ، ومن حنان ، ومن رقة ، ومن الاستجابة إلى كل دوافعه فما كان منه إلا الاعراض عن نعم الله .. فالنار ستحتضنه وتقول .. هل من مزيد ؟

التقابل لمن ثقلت موازينه هو .. بمن خفت موازينه فهذا التقابل الإخبارى بأمر غيبى المقصود منه .. أن ينعم المؤمن بنعمتين هما ..

- **النعمة الأولى** .. أن يعرف موقعه فى الآخرة من رضى ربه ورضى نعيم ربه عليه ويتنعم به .

- **النعمة الثانية** .. لمن كان يحاد فى سبيل الله ويعانده .

إذاً فنعيمه جاء فى أمرين .. من النعيم فى نفسه ، ومن العذاب لخصمه ولعدوه الذى عاداه فى الدنيا عقدياً .

وأيضاً فيه تعذيب للكافرين من ناحيتين ..

- الأولى .. من ناحية أنه يعطيه صورته من العذاب .
- والثانية .. صورة خصمه الذى كان له فى الدنيا من النعيم .

إذاً فالاثنان موجودان ولهذا .. التقابل يأتى فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة كى يعطينا هذه الصورة ـ أى فى الدنيا ـ فيقول ..

«إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ»

(سورة المطففين : ٢٩/٣٣)

ذلك هو التصوير الذى يتصوره الكافرون ـ الذين أجرموا كانوا فى الدنيا ـ بالنسبة للمؤمن ماذا قال الحق عن يوم الجزاء ليعطى التقابل ؟.. قال ..

«فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَاكَانُوا يَفْعَلُونَ»

(سورة المطففين : ٣٤)

العدالة فى القمة ..

القيامة ستأتى بأوصافها التى أرادها الحق سبحانه وتعالى ، ومادام الانسان ستعرض أعماله .. للجزاء على موازين فى منتهى الدقة ، وفى منتهى الضبط ، وفى منتهى العدل وبعد ذلك يلقى كل إنسان جزاءه .. المؤمن يأخذ العيشة الراضية ، والكافر .. جزاءه الأم الهاوية فما دامت المشكلة كذلك فالعاقل هو الذى يستقبل الأمور بما تستحقه من العناية ، ولا ينشغل ، ولا ينشغل بما لا يفيده ، ويجب ألا يتلهى بما يكون نكالاً له عما يكون نعيماً له ، ولكن الإنسان بطبيعته .. سهاء ، غافل إنشغل عما طلب منه فى الدنيا للآخرة .

* * *

٥

الجنة والنار

الله سبحانه وتعالى أوضح فى القرآن الكريم أمثالاً كثيرة للجنة والنار وذلك حتى يقرب للعقل البشرى عظيم ثواب المطيع وعقاب الكافر أو غير المؤمن وذلك لأن هذه هى نهاية الخلق ، والله سبحانه وتعالى قد خلق أجناساً مقهورة لطاعته ، وخلق الإنس والجن مختارين فى الطاعة ، وطلب منهم أن يكونوا طائعين باختيارهم .

الإيمان هو .. إختبار لحب الله فى القلب والإنسان المؤمن من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وهنا يثور التساؤل .. لماذا يعذب الله سبحانه وتعالى خلقه ؟! ولماذا يوضعون فى النار ؟.. الله سبحانه وتعالى لا يريد العذاب لأحد بل يريد أن يدخلنا جميعاً جنات النعيم خالدين فيها ، وَحُبُّ الله سبحانه وتعالى يجعله أرحم بنا من رحمة الأب والأم بأولادهم .

الله سبحانه وتعالى خلق لنا هذا الكون كله بكل مافيه من نعم فقد خلقه بتمام قدرته ، ووضع فيه قوى أكبرمنا .. كالشمس والقمر والجبال والبحار وغيرها ، ومع ذلك سخرها الله قهراً لخدمة الإنسان فقال للشمس .. إشرقى كل يوم لتضيئ له ، وتعطيه الدفء اللازم لحياته ، وتتفاعل مع الأرض والنبات لتعطيه الطعام اللازم لحياته ، وقال للماء .. كُنِ أنهار عذبة لتسقيه ماءاً عذباً يحفظ له حياته فى الأرض ، وكُنِ بحاراً لتعطى الطعام والتنقل من مكان إلى آخر فقد أوجد الله طعاماً مختلف الألوان فهذا .. حلو وذاك مر ، وغيره محبب إلى النفس .

وجاء الإنسان إلى الكون والنعم كلها موجودة ثم كشف الله للإنسان من علمه فى الأرض مايجعله قادراً على عمارتها ، وقال له .. إنطلق إلى عمارة الأرض تزداد خيراً ورفاهية وسعادة ، وإننى سخرت لك كل مافى الكون وأعطيتك كل هذا الرزق .. لذا يجب عليك أن تشكر الله ، ولم يطلب الله منا أن نسجد له ليلاً ونهاراً ، ولا حملنا مالا طاقة لنا به ، والله سبحانه وتعالى يقول .. لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .. بينما أعطانا من العبادات مايستغرق دقائق معدود فى اليوم نصلى لله شكراً لهذه النعم التى لا تعد ولا تحصى .

الله سبحانه وتعالى زاد فى رحمته وفضله وقال .. من يشكرنى ويعبدنى طائعاً مختاراً أعددت له جنة فيها كل النعم ، وأبقيه فيها يتمتع بهذه النعم خالداً فيها لا يموت ولا يمرض ولا يتعب جزاء له على هذا الشكر ، وجزاء هذه العبادة التى قدّمها هذا الإنسان هى .. كرم الله

وفضله ، نعم بلا حدود ثم جنة جعل الله فيها مكاناً لكل فرد من خلقه فلكل منا مقعد فى .. الجنة أو مقعد فى النار . ماذا فعل الإنسان ؟.. هل قدم الشكر الذى أوجبته هذه النعم عليه ؟.. أم إنه أخذ كل هذه النعم وتمتع بها دون أن يؤدى حق الشكر فقد صدق قول الله سبحانه وتعالى ..

«وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ»

(سبأ : ١٣)

الإنسان لم يفعل ذلك قط ، ولكنه مضى إلى الكون يفسد فيه فقد خلق الله الإنسان حراً فإذا بالإنسان يستعبد الإنسان .. بالمال ، وبالحاجة، ويستعبده بما خلق الله فى الكون للناس جميعاً ، وخلق الله الإنسان آمناً فإذا الإنسان يستعبده بالخوف والإيذاء وبكل ماهو كريه يفسد به صنعة الله وخلقه . الله طلب من كل منا أن يحترم حقوق الآخر فإذا بالإنسان يعتدى على حرمات أخيه وعلى ماله وعرضه .

الله سبحانه وتعالى وضع للإنسان منهج الحياة فى الأرض وقال .. إذا طبقت هذا المنهج فإنك ستعيش حياة سعيدة فى الدنيا والآخرة لكن الإنسان جاء إلى منهج الله فغيرة وأفسده ، وحين تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظ المنهج بقدرته هو بحيث لا يتم فيه تبديل ولا تغيير بينما يُشَرِّعُ الإنسان لنفسه مستخدماً هوى النفس مضلاً عن الله ثم يمعن محاولاً ستر وجود الله .

الله عدل وهو .. رب العالمين فإنه يعطى خلقه حقوقا متساوية ، وهو .. والقيوم قائم على كونه فإنه حريص على حقوق كل عبد من عباده ضعيفهم وقويهم صغيرهم وكبيرهم .. فإذا إعتدى القوى على الضعيف كان ذلك إعتداء على حق من حقوق الله فى قيومته على خلقه ، واذا ظلم جبار أحد من الناس كان ذلك إعتداء على حقوق الله فى كونه .

الله سبحانه وتعالى بعدله كفل لكل منا حقاً متساوياً دون تمييز بين جنس أو لون أو مركز .. فكلنا أمام الله متساوون لا فرق بيننا إلا بالتقوى ، والله سبحانه وتعالى قادراً على حماية خلقه وحماية الحقوق التى أعطاها لهم بعدله ، ومن هنا فإن عدله يقتضى القصاص .

النعم هذه التى أعطاها الله للإنسان بلا مقابل وبدون جهد بشرى بل بقدرة الله سبحانة وتعالى ورغم أن الإنسان .. أفسد وظلم ، وأكل حقوق غيره ، وعبث فى كون هو من خلق الله ، ونقل الحياة من السعادة والإزدهار إلى البؤس والشقاء ، فقد شاءت رحمة الله أن يمهله المرة تلو الأخرى ، وأن يبعث له الرسل رسولاً بعد رسول ، وأن يجعل عباده المؤمنين يُذكِّرُونَ البشرية كلها ببشاعة فعلهم ويذكرونهم بعذاب الله فإذا تاب إنسان ورجع عن ظلمه وندم على مافعل تاب الله عليه برغم كل الآثام التى إرتكبها فإذا رفع يديه إلى السماء وطلب المغفرة من الله غفر الله له وعفا عنه .. توبوا إلى الله توبة نصوحاً عَلَّنَا نرجع .. نفيق .. نتذكر ، ولكننا لا نتذكر الله إلا ساعة الشدة أو الضيق أو ساعة الموت فتلك هى الساعات التى يتذكر فيها الإنسان قوة الله سبحانه وتعالى وقدرته فيرفع يديه إلى السماء ويصيح .. يارب .

تلك هى حقيقة الإنسان الذى فتح الله له من أبواب رحمته أبواباً واسعة ، وفتح له من أبواب التوبة مايسع الذنوب جميعاً ، وفتح له من أبواب التذكرة مايجعله يفيق ويرجع ، ولكنه أبى كبراً وعناداً إلا أن يمضى فى ضلالته متحدياً كل منهج الله فكان حقاً عليه العقاب ، والله سبحانه وتعالى لا يريد أن يعذب أحد من خلقه لأنه هو الذى خلقهم وأوجدهم فقول الحق سبحانه وتعالى ..

«مَّايَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ»

(النساء : ١٤٧)

الإنسان هو الذى يوجب على نفسه العذاب ، وهو الذى يوجب على نفسه اللعنة وسوء المصير ، ولكن الله يذكره .. برحمته ، بنعمته وبقدرته ويقول الحق ..

«وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا»

(النساء : ٢٨)

أيها الإنسان .. أنت لا حول لك ولا قوة إلا بقدرة الله سبحانه وتعالى .. أفق ، تنبه إلى أين تسير ؟.. ولكن الإنسان لا يتدبر ولا يعرف إلى أين يسير لكن يذكره الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم بالجنة والنار ويضرب له الأمثال ليقرب المعنى إلى ذهنه ، ولكن الإنسان بدلاً من أن يقبل على الله تجده يزداد نفوراً وبعداً عن الله سبحانه وتعالى ، ويزداد غروراً حتى تحق عليه كلمة .. العذاب ، وحين يرى العذاب يحس ببشاعة مافعل وما اقترفت يداه .

وتلك هى الجنة ..

«مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَار مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِم كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ»

(محمد : ١٥)

وعندما نقرأ هذه الآية نتذكر حديث رسول الله ﷺ عن الجنة فقد قال ..

«فِيهَا مَالاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنْ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرْ»

ويلاحظ فى حديث رسول الله ﷺ أنه بدأ بالعين ثم بالأذن ثم بقلب البشر .. لأن العين فى رؤياها لها حدود ، والأذن أوسع فقد تسمع صوت إنسان ولكن نظرك لا يدركه ، والأذن تسمع تجربة غيرك وتعيها .. أما العين فلا ترى إلا مايحدث أمامها ثم يأتى مالا يخطر على قلب بشر .. فإذا كانت المعانى التى فى الآخرة هى مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لا توجد لها ألفاظ تعبر عنها فإننا نلاحظ دقة الله سبحانه فى إستخدامه مثل الجنة دون أن يطلق الألفاظ على إطلاقها ،

ولذلك فإن الحديث مختلف عما نراه فى الجنة إنه حديث على قدر عقولنا وفهمنا بما نراه فى الدنيا .

الله سبحانه وتعالى حينما تحدث عن النعيم فى الجنة كان هناك خط مشترك يربط بين هذا كله .. ذلك أن الله سينزع من كل نعمة من النعم مايضايق الإنسان فى دنياه أو مايسبب له الضيق .. فالماء فى الدنيا حين تتركه فترة راكداً فإنه يفسد ويصبح ماءاً آسناً يتغير طعمه فلا تستسيغه ، ولكن فى الآخرة لا شئ من هذا .. الماء دائماً وأبداً سيكون حلو المذاق نقياً طاهراً فكلما شربت منه إزدادت حلاوته فى فمك ، وكذلك العسل ، وكذلك باقى النعم كلها منقاه من الشوائب ومن كل شئ فهى مخلوقة خلقاً جديداً صافياً ليس هو .. خلق الدنيا ، ولكنه خَلَقٌ لا يلحقه أى نوع من العيوب التى تظهر فى نعم الدنيا حين تترك لفترة أو يساء إستخدامها بأن تتحول من حلال إلى حرام ، والخمر فى الدنيا إثم لأنها تذهب العقل ، والإنسان حين صنعها ملأها بالشوائب الضارة تجعلها ضارة بالصحة والجسد والعقل وفيها أذى كبير للإنسان فحين يغيب العقل تدفع الإنسان إلى طريق الشر وإلى طريق الشيطان .. إذاً فهى أم الكبائر ، ولكنها فى الآخرة غير ذلك ينزع منها الله كل هذه الشوائب ويوجدها بتكوين طاهر غير هذا التكوين الذى نعرفه فى الدنيا .

نِعَمُ الله كلها ستكون طاهرة مطهرة من كل شائبة .. الماء لا يأسن ولا يتلف ، واللبن لا يتغير طعمه ، وكل شئ هو .. مخلوق ليكون نعيماً مطلقاً دون مايكون فيه مايكدر أو ماينفر أو مايؤذى آكله أو

شاربه .. ذلك هو المعنى الذى يريد الله سبحانه وتعالى أن نفهمه من المثل الذى ضربه لأن عقولنا لا تستطيع أن تعى ماهو موجود فعلاً فى الجنة لذلك يقول الله سبحانه وتعالى إن ماهو موجود سيكون نعيماً ليس فيه شائبة واحدة ، وليس فيه مايكدر الصفو ، ولا تصيب الإنسان بأى نوع من الضيق ولو كان خفيفاً ، ولذلك فهو نعيم يحيط به نعيم .

أما بالنسبة لأهل الجنة فيزال من نفوسهم كل مايضايق أو تضيق له النفس فيقول الله سبحانه وتعالى ..

«وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ»

(الحجر :٤٧)

الغل والحقد فى القلب هما .. آفة الدنيا فالذى يفسد الدنيا ويفسد العلاقات بين الناس هو .. الحقد الذى يصيب الإنسان فيجعل فى قلبه غلاً نحو إنسان آخر فيفسد العلاقة بينهما ويصبح كل منهم عدواً للآخر ، وتبدأ معه العداوة والبغضاء وشرور الدنيا ، والله سبحانه وتعالى يريد أن يعرفنا أن الإنسان فى الجنة سيكون مطهر القلب ، وأن المجتمع فى الجنة سيكون مجتمعاً متحاباً ليس فيه غل ولا حقد ولا كل مايشوه الحياة الدنيا ، ولا يضع فيه أى نوع من أنواع الشقاء .

الإنسان فى الجنة لن يكون كالإنسان فى الدنيا بل سيكون مطهراً من كل الشوائب ، ومن كل الأشياء التى قد تسبب أو تثير أى نوع من الشقاء وفى ذلك يشير الله سبحانه وتعالى إذ يقول ..

«وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ»

(البقرة : ٢٥)

التطهر بالجنة سيكون شاملاً وكاملاً .. كيف سيكون ؟ وكيف سيتم ؟.. ذلك علم الله . إذاً الجنة مجتمع مطهر من كل شئ يصيب من يعيش فيه بأى نوع من الضيق أو الشقاء أو عدم الراحة وذلك يحدث بقدرة الله سبحانه وتعالى .. إنه سيأتى بنعم مطهرة وأزواج مطهرة ، ونفوس مطهرة ليصبح هذا المجتمع الطاهر نعيماً لا تدخل فيه ذرة واحدة مما يثير الضيق فى النفوس فإذا وصلنا إلى هذه الصورة لم نصل إلى كيف يكون النعيم فى الجنة ، ولكننا نكون قد وصلنا إلى ماتستطيع عقولنا أن تفهمه من معنى النعيم فى الجنة دون أن نصل إلى حقيقته .

وهذا عذاب النار ..

نأتى بعد ذلك إلى الأمثلة التى ضربها الله سبحانه وتعالى بالنسبة للعذاب فى النار والعياذ بالله فتلك لا تمثل حقيقة واقع العذاب ، ولكنها تعطينا صورة مقربة تجعلنا نفهم طبيعة هذا العذاب الرهيب .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا .. أن العذاب فى النار لا ينتهى أبداً أى أنه عذاب مستمر لا يتوقف دقيقة واحدة فيقول ..

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً»

(النساء : ٥٦)

نحن نعلم بعلمنا البشرى أن الأعصاب هى التى تنقل الحس إلى الإنسان والتى تجعله يشعر بالألم فهى موجودة تحت الجلد مباشرة ، ومن هنا نعرف أن المسألة ليست عذاباً بحيث يحترق الجلد وتحترق معه الأعصاب ثم لا يشعر الإنسان بشئ ، ولكن كلما احترقت الأعصاب بدل الله جلود الذين يعذبون فى النار بجلود أخرى تحتها أعصاب حية ليستمر الشعور بالألم والإحساس بالعذاب لأن الله يريد أن يقول لنا لا تحسبوا عذاب النار مجرد عذاب وقتى أو أن الإنسان يحترق ولا يحس بشئ بعد بل كلما احترقت الجلود بدلناها بجلود غيرها ، ويعطينا الصورة البشرية التى نفهمها بأن العذاب مستمر لا يتوقف والجلود فى النار .

الله يمضى فى بيان صورة العذاب فى النار فيقول ..

«خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ»

(الحاقة : ٣٠/٣٢)

وهنا صورة أخرى من العذاب هى .. أن الإنسان سيكون وسط هذا الجحيم مقيداً بالسلاسل ، وأنت إذا أردت أن تعاقب إنسان فى الدنيا فإنك تقيد حركته وتربطه بالسلاسل فهذا وحده عذاب للبشر دون أن يكون معه أو مضافاً إليه عذاب آخر . فإذا أضفت إليه عذاب النار كان ذلك عذاباً مضاعفاً لذلك فإن الله يريد أن يقول لنا مع هذا أن الألم المستمر من النار الذى يتجدد بتجديد الجلود فإن الإنسان لا يستطيع أن يتحرك يميناً أو يساراً لأنه ربماخففت عنه الحركة العذاب قليلاً ، ولكن حتى هذا التخفيف غير موجود فهو مقيد فى مكانه لا يستطيع أن يتزحزح عنه مما يجعل الشعور بالعذاب مضاعفاً .

ويضاف إلى ذلك العذاب .. عذاب الماء الذى يشربه الإنسان فى النار إذ يقول الحق سبحانه وتعالى ..

«وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ»

(محمد : ١٥)

«لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا*
إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا»

(النبأ : ٢٤/٢٥)

ففى ظل هذا العذاب المقيم حيث النار تأكل جلودهم التى تعاد إليها الحياة مرات ومرات والسلاسل والاغلال تحيط بهم فيطلبون الماء علـه يكون فيه برد يخفف هذا العذاب ولو للحظة واحدة فيؤتى لهم بالماء ، ولكنه ماء يغلى ومن اللهفة على الماء يشربونه فبدلاً من أن

يخفف عنهم العذاب يزيده ويقطع أمعاءهم ويزيد من إحساسهم بالعذاب وبالألم الرهيب .

وبعد ذلك يأتى لهم بالطعام عله يقيم أودهم فيقول الحق ..

«أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ»

(الصافات : ٦٢/٦٧)

الله سبحانه وتعالى يصور بشاعة ماسيأكله أهل النار ، ولك أن تتصور مانوع الشجرة التى تخرج من نيران خالده ، وكيف يكون كل مافيها من نار ، ويتحدث الله عن طلع هذه الشجرة وثمارها .. «طلعها كأنه رءوس الشياطين» .. ذلك قمة البلاغة لأثارة الفزع فى كل نفس بشرية ، وكأنما أهل النار حينما يطلبون طعاماً لا يجدون إلا شجرة الزقوم وهم يفتنون بها فيخيل إليهم أنها طعام جيد فإذا أوتى بها إليهم أثارت فى نفوسهم الفزغ والرعب من بشاعتها وكأنها رءوس شياطين تثير الخوف والفزع فى نفس كل فرد منهم .. فهذا الطعام يملأ نفوسهم رعباً حيث .. فى كل مضغة ألم ، وفى كل معدتهم نار وألم ، وفى أمعائهم ألم شديد .

❑ ❑ ❑

ولكن يجب ٥٥٥٥

أن تتنبهوا أيها الناس ..

ثالثاً ٥٥٥٥

١

إحذروا اللهو فى منطقة التكليف

عن تلك المقاييس ، وعن تلك الموازين ، وعن تلك النهاية .. إنشغل الإنسان عن الأعمال التى تجعل موازينه ثقيلة .. فبأى شىء يتلهى ؟ .. يتلهى بالأشياء التى لا تجعل موازينه ثقيلة فتلك غفلة، وذلك ندم ، وذلك غباء .. أى أن ذلك يعنى تحذير عن مطلوبات الله من الإنسان فى الوجود ، وعن تحقيق الإنسان المنفعة لنفسه فيجب ألايسهوا الناس عن ذلك ، وأن يتبهوا ، وأن يفيقوا فلاينشغلوا بما يخفف عن ما يثقل موازينهم .

القرآن الكريم يستغل لإبراز هذا المعنى بعض الأحداث فيجعلها مناسبة لألقاء هذه الصورة .. لا يقول الكلام كلاما نظريا بل ينتظر القرآن إلى أن يأتى حدث من الأحداث يجعل للصورة موقعا فى مطلوب الحدث فيحدثنا المؤرخون والمفسرون إنه فعلا حدث ذلك .. ماذا حدث ؟.

لقد تكاثر قوم من بنى مناف مع قوم من بنى سهل .. ما معنى التكاثر ؟ .. ولتوضيح معنى التكاثر هنا يقال .. إن فردا لايتكاثر مع فلان إلا اذا كان فلان يتكاثر أيضا عليه .. فأنا أكاثرك ، وأنت تكاثرنى .. أى كل فرد منهما فاعل ومفعول ، ولذلك عادة يأتى الفاعل ضميراً .. تكاثر القوم أى كاثر بعضهم بعضا .

ولا تتلهوا ..

يقول الحق سبحانه وتعالى .. « أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ» .. أى الصادر منكم جميعا فكل فرد يكاثر الآخر ، ومعنى كاثره تأخذ معنيين ..

- **المعنى الأول** .. أن تكاثره بما وقع عندك من نعيم ، وأن يُكاثِركَ بما وقع عنده من النعيم لشىء واقع ، ويقول .. أنا أموالى الموجودة عندى الآن أكثر من أموالك ، ولدى أكثر من ولدك ، نعيمى أكثر من نعيمك .. فيعنى التكاثر إنك تدعى أنك الاكثر ، وهو يقابلك فيدعى أنه أكثر منك فى شىء واقع .
- **المعنى الثانى** .. أَلتَكَاثُرُ بمعنى أنكم تصرفون جهودكم فى أن تكونوا أكثر الناس فى أشياء فتستقبلون بالفعل أعمالا تريدون بها أن تكاثروا الغير

إذا .. المعنى الاول التكاثر فيه أو به يكون موجودا ، وعلى المعنى الثانى يكون التكاثر مطلوبا . أى أن التفاخر بما عندهم هو المعنى الاول،

والذين ينصرفون بكل طاقاتهم فى حياتهم الى أن يكونوا اكثر من غيرهم فى الاشياء يكون هذا هو المعنى الثانى .

ماهو الالهاء ؟.. الالهاء هو وجود شىء يسيطر على فكر الإنسان فيجعل غير المطلوب منه !! فيوجه طاقته اليه ، واللهو يقارب منه اللعب لأن اللعب بشىء تافه ليس فيه عناء وتترك آخر فهل هذا هو الفرق .. كيف ؟ .

الحق سبحانه وتعالى حينما تعرض للهو واللعب فى كل آيات القرآن الكريم إلا آيتين فقد قدم اللعب على اللهو ، بينما الترتيب المنطقى نجده كما قال الله سبحانه وتعالى فى الآية الأولى ..

«إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ»

(محمد : ٣٦)

وفى الآية الثانية ..

« وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ»

(الانعام : ٣٢)

لكن فى إستقراءات آيات القرآن الكريم تجد اللعب قبل اللهو .. لماذا ؟ .

الأنسان تمر عليه فترات .. فترة قبل أن يبلغ ، وهى فترة غير تكليفية فلم يترك شيئا مطلوبا منه ليفعل شيئا غير مطلوبا منه .. لكن اللهو ليس كذلك حيث يترك شيئا مطلوبا منه وينشغل بغير المطلوب .

الإنسان حينما يستقبل الحياة لايكون مكلفا أول الأمر فأول ما يبدأ أمره هو .. اللعب ثم يكلف فينشأ اللهو ، ولذلك لم يقل القرآن الكريم .. اللعبتم .. لا ، وإنما قال .. الهاكم .. لماذا ؟ لأن اللعب عادة لايكون فى منطقة التكليف ، وأما اللهو فيكون فى منطقة التكليف لأن به مطلوب منك شغلت نفسك عنه .

المكلف قد لايكون له وقت مباح له فيه أن يلعب إنما بشرط أن يكون ملهى له عن التكليف .. اذاً فهو شىء ترفيهى للنفس ليس له حصيلة إلا أنه يعطى الانسان شيئا من الراحة ، وشيئا من الإنفساح من التقيد مثلما أحل الله لنا أن نلعب يوم العيد ، والرسول محمد ﷺ ينظر وهو فى المسجد الى لعب الحبشة لعب ليس له فى صميم الحياة مهمة إلاأنه يعطى إنطلاق النفس من القيود .. هذا يوم عيد يباح لهم شيئا من اللعب لكن لايلهيهم ، ولذلك السيدة عائشة تقف خلف رسول الله ﷺ ويريها كيف اللعب .

الرسول محمد ﷺ يدخل عليه أبوبكر رضى الله عنه فى يوم العيد فيجد جاريتين تغنيان فيقول أبوبكر .. أمزامير الشيطان فى بيت رسول الله ؟! .. فيرد الرسول ﷺ .. دعهما يا أبابكر فهما فى يوم عيد .

إذاً ثمة أشياء تكون مباحة عند المكلف بشرط أن لاتشغله عن الطاعة إنما ليست فى كل وقت لكن فى الوقت الذى جعله الله عيدا ، ولماذا سماه عيداً ؟ . لأن المباحات التى كانت مباحة لك فى الأول تفعلها أو لاتفعلها .. تأكل أو لاتأكل .. تفطر صباحا أو لا تفطر .. هذا مباح

وليس فيه أمر تكليفى ، ولكنه أصبح مفروضا عليك أن تفطر يوم العيد ففرض الله عليك الشىء المباح ، وأثابك عليه كما أثابك على أن تصوم لقد كلفك الله به تكليفا فالفطر يومه ـ يوم العيد ـ كالصوم فى رمضان ، ولذلك يحرم الصوم يوم العيد .. كذلك تلعب ولك فيه ثواب هذا هو يوم العيد .. لإنه يعطى ثوابا عن أشياء كانت مباحة إفعلها أو لاتفعلها .

فى قول الحق سبحانه وتعالى .. «أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ» يدل على المعنى الثانى فياليته كان لعبا وليس مطلوب منكم أى شىء .. ياليته لم يشغلكم عن أى شىء ، ولكن .. « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ» .. بما لايعينكم فقد كان من بنى عبد مناف أن تكاثروا مع بنى سهل ، وبعد ذلك حين تكاثروا معهم كاثرهم بنو عبد مناف .

وظللتم فى الغفلة مخمورين ..

الحق سبحانه وتعالى يقول .. « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ» ..وظللتم فى هذا اللهو وظللتم سائرين فى هذه الغفلة ، وظللتم مخمورين ، وظللتم مخدرين عما يطلب منكم .. «حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» .. وما معنى زرتم المقابر ؟ .. أكانت له صورة واقعة بحيث تفاخروا بالأحياء حتى أنتهى التفاخر بالأحياء فذهبوا ليتفاخروا أيضا بمن فى القبور !! .. أى فى

تكاثرهم ذهبوا الى أن يزوروا المقابر ليضعوا الى التكاثر الموجود لهم فى الدنيا تكاثر كان لهم ثم ماتوا .. أو أن الإلهاء بلغ بكم مبلغا بأنكم شغلت به كل الوقت حتى فوجئتم بالموت يعنى ظللتم فى حياتكم كلها فى التكاثر حتى شغلتم بالموت .

*   *   *

٢

إستحضار الجزاء

تلك زيارة التكاثر بالأموات أكان المراد بها إدراك أن الموت يأتيكم فبعد ذلك تتنبهون ، ولاتقدرون على العمل ؟ .

الانسان العربى الذى يستقبل القرآن بايحاءاته فانه يستقبله بخلفياته المعبرة حينما سمع ..

« أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ »

نعى الناس الى أنفسهم فقالوا ورب الكعبة والله لقد قامت القيامة مادام .. « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ » .. فالتعبير الدقيق هنا فيما يفهم من .. « زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ » هو ..

● المعنى الاول .. أنهم ذهبوا الى المقابر ليتكاثروا بالأموات .. أنهم

تكاثروا ورجعوا فالمدة التى إستغرقها التكاثر عند القبورمدة قصيرة هى مدة الزيارة .

- المعنى الثانى .. إنه اذا كان المقصود بأن التكاثر ألهاكم ، وأغفلكم ، وأذهبكم حتى فاجأكم الموت فمتم .

والتعبير هنا بزرتم المقابر يأخذ صياغة ثانية كأنه يعنى أن الموت ليس نهاية الأحياء إنما هى مرحلة فقط بعدها أمر آخر وسيبعثون الى الحياة ثانية ، وفترتكم فى ذلك هى فترة مثل الزيارة ، وذلك يعنى أن الزائر غير مقيم .

الذى يلهى الانسان عن شىء كما قلنا هو .. غفلته عن مصيره فى الامرين لأنه لو أن الانسان إستحضر الجزاء عن أعماله أو عجلنا له بعض الجزاء على أعماله ، وأستحضرنا له الجزاء محسا أمامه ثم جاء الأمتع متعة يتمتع بها ، وقلنا له .. إن فعلت هذه المتعة فسيكون مصيرك هذه النار .. ثم أوقدنا نارا وقلنا له .. إن تمتعت بهذه المتعة فإننا سندخلك هذه النار فإنه سيدرك المعنى محساً .

الامران اذاً محسان وانه لايوجد إنسان أبداً يجازف بأن يتمتع المتعة ، ويلقى بنفسه فى النار ، ولماذا اذا قال الله سبحانه وتعالى .. أنت إذا فعلت كذا أبعث بك الى النار ؟ .. ما الفرق بين الصورة والصورة ؟ .. هذه صورة محسة عاجلة والجزاء غير آجل ، ومادام غير آجل يكون غير مستحضر بالصورة إياها .

وذلك يقيننا ..

ما الذى يوجب اللهو عن المطلوب ؟ .. إنه هو معنى الجزاء فمعنى موقف الجزاء ، ومعنى الموصل للجزاء هو أمر باهت فى النفس ، ولذلك لو كان أمراً واضحاً فى النفس ، والنفس تراه فلا يمكن لفرد أن يقبل على معصية أبداً مادام يستحضر الجزاء ، والعذاب إن فعلها .

اليقين فى الجزاء حين يبهت تحدث للنفس ميلا وشهوات الى المعصية ، لكن الجزاء حين يتضخم أمام النفس لا يمكن أن يأتى بالمعصية .

* * *

٣

اليقين بالجزاء

رسول الله محمد ﷺ لما سأل حارثة قال .. كيف أصبحت ؟ .. فقال له حارثة .. أصبحت مؤمنا بالله حقاً ، وقال له رسول الله ﷺ .. لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ .. فأجاب حارثة .. عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها وتبرها ـ إنسان يتماثل عنده الذهب بالتراب فإنه إنسان متيقن بالجزاء ـ وكأننى أنظر إلى أهل الجنة ينعمون ، وإلى أهل النار فأجدهم فى النار يعذبون .

يعنى ذلك أنه أصبح المنظر الذى أمامه محساً .. فمادام بهذه الصورة أيغفل عن المنهج ؟.. لا يمكن أن يغفل عن المنهج ، ولذلك الرسول ﷺ يعطينا هذه الصورة فيقول .. الناس جميعاً موقنون ومؤمنون أنهم يموتون .. لماذا ؟.

إننى وأنتم الكل ميت ، وباستقراء أفراد الحياة نجد أنه لم ينج أحداً من الموت فالحياة هكذا ، والناس إذا كانوا متيقنين بأنهم يموتون .. فماذا يجعلهم يغفلون عما يطلبه الموت ؟ .

رسول الله محمد ﷺ يقول .. لا أرى يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت .. هذا صحيح يقين إنما يقين فيه قليل من الشك فلولم يصحبه الشك لكان الإنسان دائماً يستحضر ذلك الموت .

عـــين اليقـــين ..

المعلومات دائماً حين يعلمنا بها معلم تأخذ صور ثلاثة هى ..

- الصورة الأولى .. صورة ذهنية ، وهى أن يخبرك بها المخبر عن الخـــبر .
- الصورة الثانية .. صورة نظرية .
- الصورة الثالثة .. صورة علمية .

ومعنى صورة ذهنية أو صورة علمية أن الشئ فى حقيقته بعيد عنك وأخذت حسب تصديقك للمخبر صورة يقينية عنه ، ولكن يقيناً نظرياً علمياً ، وبعد ذلك ينتقل إلى أليقين ليس نظرياً بل إلى يقين عينى وذلك كما ضربنا مثلاً سابقاً حيث قلنا .. إذا جاء إنسان من بلد من البلاد ، وقال زرت بلد ما فوجدت بها فاكهة فى حجم البطيخ ، وفى لون البرتقال ، وفى طعم التفاح ، وفى رائحة الموز فهى .. فاكهة غريبة

فإن كان صادقاً يكون قد أعطاك صورة ذهنية نظرية عن الشئ ، وبعد ذلك أنت تجده يدخل بيته ويخرج بثمرة من هذه الفاكهة ويريها لك .. إذاً فقد إنتقلت من الكلام النظرى إلى الكلام العينى ، وأصبحت فى عين الشئ .. عين المخبرُ عنه فلم يصير ذهنياً بل صار عينياً .

هذا اسمه إنتقال من .. علم اليقين إلى عين اليقين .. أى أصبحت عينياً أمامه ، فإذا جاء بسكين وقطعها قطعاً وأعطى كل إنسان قطعة وأكلها يكون بذلك إنتقل من .. عين اليقين إلى حقيقة اليقين .

يقين الردع والزجر ..

الحق سبحانه وتعالى فى الإخبار عن الغيبيات يخبرنا وهو الصادق ألحق بالصورة الذهنية عن الأشياء فتلك اسمها .. علم اليقين ، وبعد ذلك نرى الشئ الذى كان نظرياً نراه بعينينا فذلك اسمه .. عين اليقين ، ثم ندخل فى حقيقة ذلك الشئ فيصير .. حق اليقين .

الشرح والتواتر يخبرنا أن لله فى مكة بيت اسمه الكعبة ، والبيت هذا شكله كذا ، والذى يذهب إليه يطوف به .. البعيد عنه يأخذ بذلك صورة علمية عن البيت ، وصورة ذهنية عنه فيكون عنده .. علم اليقين لأن المخبر صادق ، والتواتر أيده .. فعندما يذهب وينظر إلى البيت الذى كان علم اليقين أصبح فى .. عين اليقين ، وإذا ماطاف بالبيت ـ الكعبة ـ صفت روحه ، وشبع فؤاده ، وغمرته الروحانية يكون بذلك قد دخل فى .. حقيقة اليقين .

الإنسان يلهو عن القيمة الجزائية للأشياء من جنة ونار وهو يأخذ صورة علمية تنبهت عنده مرحلة علم اليقين ، ويجئ الحق سبحانه وتعالى ويأتى لهذا الداء ليعالجه فماذا يقول ..

« أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ »

تلك .. كلا فهى كلمة ردع ، زجر ، ويعنى هذا بأنه ليس سلوك لعاقل ، وهذا ليس سلوك الإنسان الذى رتب الأمور على نتائجها إنه .. سلوك معيب .

كلا لحظة سماعها تفهم أنها كلمة .. زجر فذلك مسلك لا يرضى الله ولا ينفعك ، والذى انتم متشككون فيه فى هذه المسألة لأن علم اليقين لا يكفيكم حيث أننا فى القبر تعرض علينا .. تعرض علينا الجنة إنما لا ندخل .. أى أن الذى كان علم اليقين فى الأولى سيصير عين اليقين عندما يجئ الجزاء .

أهل الجنة يدخل الجنة ، وأهل النار يدخل النار ، وبذلك يكون إنتقلوا إلى حقيقة اليقين .. إنها مراتب إعلام من الحق سبحانه وتعالى بوجود جنة ونار ، وبوجود جزاء ، ولكن ذلك نظرى تلك صورة ذهنية وأنت صدقت الحق الصادق .. فالذى إيمانه زائداً ، وحقيقة إيمانه موجودة يعلم ويتيقن أن ما قاله الله ليس علماً نظرياً بل هو علم حقيقى ، والذى صادف عن هذا يظل حتى يعلم بالمرحلتين الثانيتين فيقول .. كلا يزجرنا

عنه ، ثم «كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ» .. أى تنتقلوا لمرحلة علم اليقين .. وهى المرحلة الأولى .

وتأتى المرحلة الثانية .. «كَلاَّ سَوْفَ» .. فليست هذه عين اليقين فقط .. لن تظل ناراً ترونها هكذا بل ستأتى مرحلة ثانية حيث يعلمونها علماً آخر فلم يكفيكم علم اليقين .. «سَوْفَ تَعْلَمُونَ» .. بعد الموت عين اليقين فتلك ليست النهاية فحين ترونها فسوف تعلمون .

والحمد لله رب العالمين ،

❑ ❑ ❑

* * *

الإمام

محمد متولي الشعراوي

داعية إسلامي جليل حديثه إلى القلب وسيلة يدرك العقل به نور اليقين فنعي ونتدبر ، وذلك من خلال جلاء للغموض ، وتوضيح ما خفى لنا من حقيقة أن .. القيامة والبعث والميزان والجزاء حق وما يتطلبه ذلك من الإنسان فى تلك الحياة إستعداداً لهذا الموقف واليوم العظيم فهى أمور يجب أن تكون فى القمة .

حديث الإمام من خلال تلك الصفحات يحرص كل الحرص أن يوضح ويفهم لنا هذا الأمر ، وذلك تحذيراً للعابثين والمتشككين ليدركوا الحقيقة وهى .. أن الموت والانتقال أمر لا مفر منه .. فيجب أن نعد له الزاد ، وأن نتدبر قبل أن ينقضى العمر ونحن فى غفلة فنجد يوم العرض يكسونا الخزى أمام رب العرش العظيم بينما .. الصالحين والمتقين والعابدين تظلهم رحمته وهو أرحم الراحمين فى جنات عدن مع الصديقين المؤمنين الإيمان الحق ،

الناشر